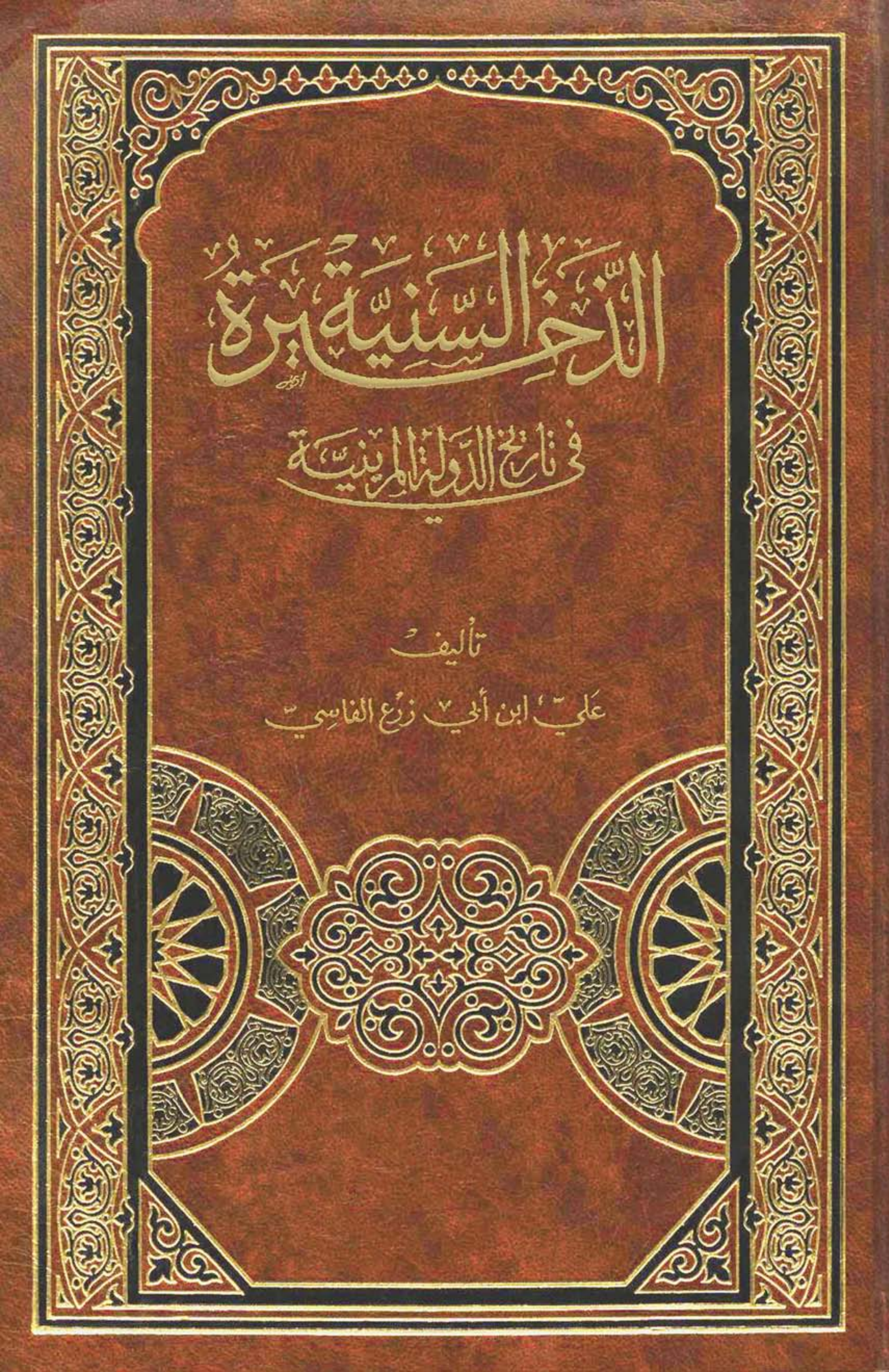
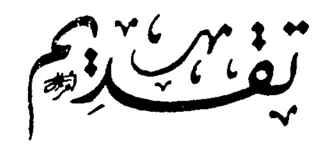


الذخيرة السنية
في تاريخ الدولة المرينية
تأليف
علي ابن أبي زرع الفاسي



تأليف

علي ابن أبي زرع الفاسي



تقديم

* اسمُ هاذا الكتاب كما ورد في مُقدمتِه (الذخيرة السنية ، في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقيَّة) .

* لم يعرف الكتابُ رواجًا على أهميَّةِ ما فيه من أخبار ، فلم يقع النقلُ عنه في قديم ولا حديث ، إلا إشارةً عابرةً في كتاب (روضة النِّسرين، في دولةِ بني مَرين) تأليف إسماعيل ابن الاحمر الذي سماه (الدرة السنية) (1)

* لا يُعرف على وجه التحقيق اسمُ مؤلِّف الكتاب ، ولكن بمقارنة بسيطة بين عباراته ونصوصه يظهر بسهولة أنَّ مُؤلِّفَه ومؤلِّفَ (الانيس المطرب بروض القرطاس ، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) واحد، وأول مَن كتب في الموضوع الاستاذ الجليل السيد عبد الله كَنُّون الذي نشر في مَجَلةِ تطوان (2) بحثًا قارن فيه بين عبارات الكتابيْن ورجح أن يكون مؤلفُ الذخيرة السنية هو ابن أبي زرع صاحب القرطاس، ثم نُشِر منذ بضعة شهور بحث آخر أوسع في مجلة دعوة الحق ذهب فيه كاتبُه مذهبَ الاستاذ كَنُّون ، أما الاستاذ الجليل محمد بن أبي بكر التطواني فيرا أنَّ تشابُهَ عبارات الكتابَيْن واتفاقَهما

لايدلان حتماً على أن مؤلِّفَهما واحد، لان عادةَ مؤرخي ذالك العصر جرت بأن ينقُل أحدهم كلامَ غيره دون أن ينسبَه إليه، وعلى وَجاهة هاذا الرأي نميل إلى ما رجَّحه الاستاذ كَنُّون فننسُب الذخيرةَ السَّنيةَ إلى ابن أبى زرع حتى تقومَ الحُجةُ على أنه من عمل غيره.

❀ نَشَرَ هاذا الكتاب للمرة الأولا البحاثةُ الجزائري الشهير الدكتور محمد بن أبى شنب بالجزائر سنة 1920 من غير تقديم ولا تعليق، ولم يُعْنَ الناشر بتحقيق الكتاب فجاء مليئاً بالاخطاء شكلا وموضوعاً.

❀ والآن وقد مرَّ على نشْر الكتاب للمرة الأولا أكثر من نصف قرن رأتْ دار المنصور للطباعة والوراقة أن تُعيدَ طبعه لِتعْميم الافادة به وجعْله فى متناول أيدى الباحثين والمؤرخين منهم على الخصوص، وقد قامت دار المنصور بتحريره ومقارنة نصوصه بالنصوص المشابهة الواردة فى كتب أخرا أُلِّفَت فى ذالك العصر، كما قامت بترتيب حوادثه ووقائعه ترتيباً زمنياً مطابقاً للتسلسل التاريخى الذى لم يُراعِه المؤلفُ دائماً، وحَذفت فى أكثر الحالات الكُنَا التى كان إحلالُها مَحَلَّ الاسْماء موضة ذالك الوقت، فجعلت عبد العزيز بدل أبى فارس، وعبد الله بدل أبى محمد، ويحيا بدل أبى زكرياء، ويعقوب بدل أبى يوسف وهَلُمَّ جراً، لأنها هي أسماءُ الناسِ الحقيقيةُ التى لا يبقا معها انبهامٌ ولا التباس، أما الشروحُ والتعاليق فضُرِب عنها صفحاً، ولم يُشَرْ فى أسفل الصفحات إلا إلى ما اعتُقِد أن الاشارة إليه لازمة وهو قليل جِداً.

❀ اعتمدت دار المنصور في نشر الذخيرة السنية على نسختين منه :

ـ النسخة الأولا هيَ المطبوعةُ التي نشرها الدكتور محمد بن أبي شنب .

ـ والنسخة الثانية خطية كانتْ في خزانة العلامة المرحوم حسَن حُسني عبد الوهاب ثم انتقلت بعد موته إلى المكتبة القومية التونسية وحُفظت فيها تحت عدد 18.280 (رقم جديد) .

وهاذه النسخةُ مغربيةُ الخط، مبتورةُ الآخر، كتابتُها رديئة ، وبأكثر ورقاتها آثار رطوبة تجعل قراءةَ النصِّ صعبةً أحيانًا ، عدد أوراقها 68 من حجم 27 ـ 20 في كل صفحة 25 سطراً .

وقد كتب على ظهر الورقة الأولا من هاذه النسخة ما يلي :

الحمد لله صلاةُ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

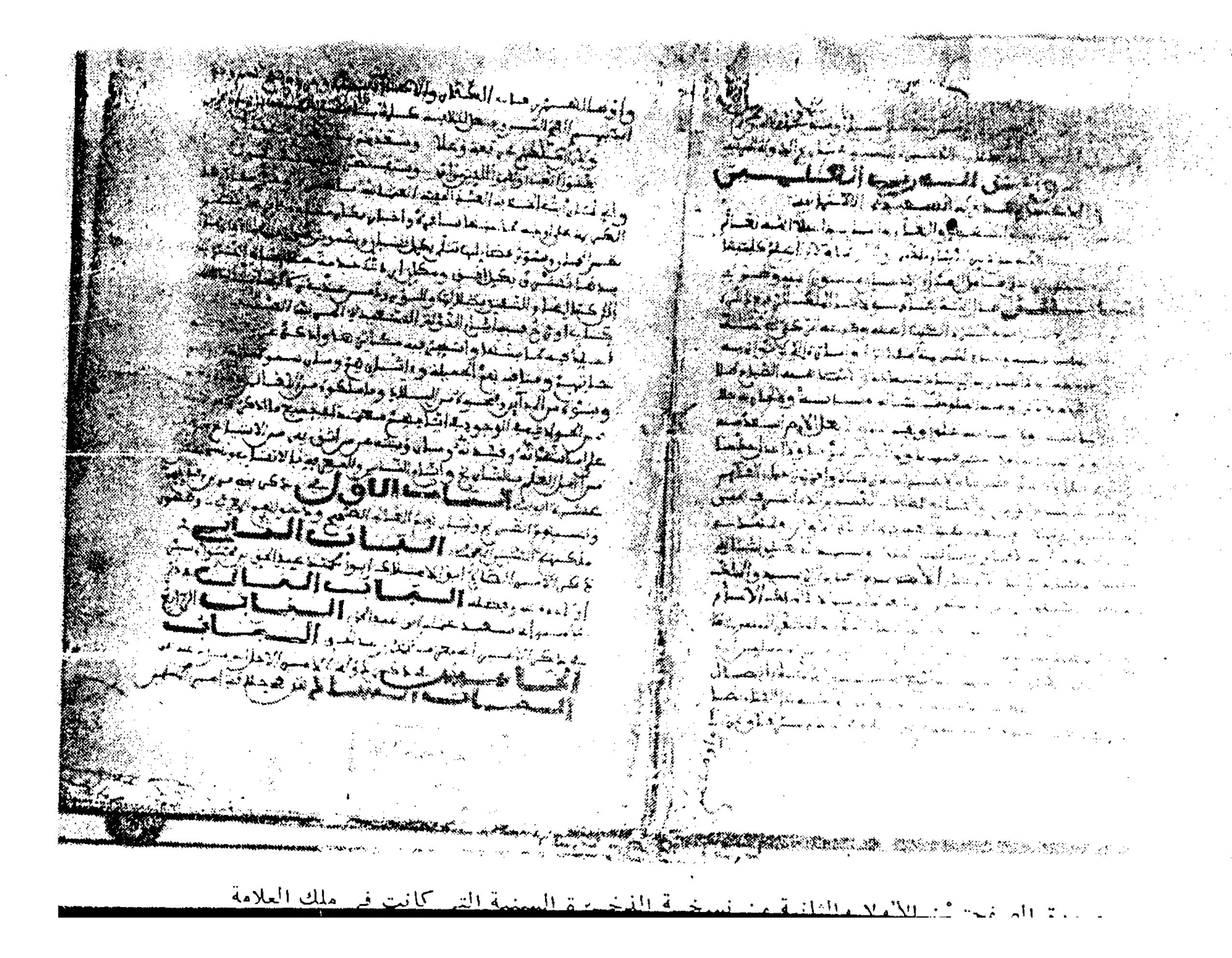
أودع كاتبُ الحروف الفقيرُ إلى رحمة مولاه الكبير محمد بن سالم بن حسن بن محمد الورفلي المسراتي الطرابلسي شهادةَ أن لا إلاهَ إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن جميعَ ما جاء به حقٌّ وأن الساعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها وأن الله يبعثُ مَن في القبور، اللهم اغفرْ لي .

وبعدُ فهاذه النبذةُ قد استعرتُها من بلد الجزائر من الأجلِّ سيدي حمدان ....وكيل الحرج ببلَدِ الجزائر فمَن وقف وهوقادم لبلَد الجزائر فلْيَأخذْ ها و لْيُمكِّنها له بيده ويطلبْ

لى منه السماحَ فيما تعدَّ يتُ عليه فيها الأجْل لم نُبلِّغْها له وسافرتُ بها من غير مشورته والسلام .

❀ وأخيراً تَلفتُ دار المنصور أنظارَ القُراء إلى أنَّها طبعت هاذا الكتاب مثل باقي الكتب التى تنشرها على طريقتها التى تعتقد أنها أدنا إلى الصواب من الطريقةِ التى جرا عليها الناس منذ قرون ، فهي تمُدُّ خطاً كلَّ ما هو ممدودٌ لفظاً ، كما أنها تكتب الألفَ الليّن ألفاً مطلقاً ، وتذكّر - فى أكثر الحالات - كل ما ليس مؤنثاً حقيقياً ولا لفظياً . الشيء الذى يثيرُ ولا شكَّ استغرابهم واستنكارهم لأنهم لم يألفوه ، وهم يشعرون فى قرارة أنفسهم أنه يُطلق الكتابة العربية من عِقالها ويُنقّيها من رواسب الماضى .

الرباط - الاثنين { 5 ماي 1972
22 ربيع الثاني 1392 }



صورة الصفحتين من الأمالي الثانية عن نسخة الذخيرة السنية التي كانت في ملك العلامة

الدرة السنية
في تاريخ الدولة المرينية

تأليف

علي بن عبد الله بن أبى زرع

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الحمد لله رب العالمين ، والدعاء للدولة السعيدة العثمانية (1) بالنصر والتأييد ، والظهور والبقاء والتأبيد ، أعلا الله تعالا أمرها ، وخلد على مرّ الأيام ملكها وفخرها ، ولا زال علم كلمتها بالرعب منصوراً ، وعلى كامل العدل والاحسان منشوراً ، بمنه وطوله .

أما بعد أطال الله بقاء مولانا الملك الرفيع ذكره وقدره ، البديع شرفه وفخره ، الطيب أصله وفرعه ، الزكيّ شخصه وصنعه ، المنيف حسبه ونجاره ، الكريمة مآثره وآثاره ، الذى لا توازيه الجبال رجاحة ، ولا تباريه الرياح سماحة ، ولا يضاهيه الصباح طلاقة وصباحة ، ولا تراومه الملوك بسالة وسياسة ، ولا تجاريه جلالة ورياسة ، ولا تساميه علواً ونفاسة ، ولا تقل الأرض أسعد منه جداً ، ولا أثبت زنداً ، ولا أحضر فهماً ، ولا أمضا عزماً ، ولا أعدل حكماً ، ولا أرجح حلماً ، ولا أغزر كرماً ، ولا خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، القائم بأمر الدنيا والدين ، والقامع للطغاة المفسدين ، الذى أشرق بجبين خلافته الزمان ، وسعد بها العباد وأضاء الأوان ، وتمهدت ببركة دولته الأقاليم وتأمنت البلدان ، وشهدت بعلو شأنه وجلال سلطانه الآثار

---

1) يريد بالدولة السعيدة العثمانية دولة السلطان عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى المشهور بكنيته (أبى سعيد) وهو الذى الف الكتاب برسمه .

والأعيان ، الامام العادل الرشيد ، والملك المنصور السعيد ، أمير المسلمين أبو سعيد ، ابن مولانا الملك الامام ، ناصر دين الاسلام ، ومبيد عبدة الأصنام ، المؤيد المظفر المنصور ، الصالح العابد المجاهد المبرور ، الهمام القائم بالحق ، أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أمتع الله الدين والدنيا باتصال أيامهم ، ودام ملكهم وسلطانهم ، وأعان الأمة على القيام بطاعتهم ، وتعزيزهم وإعظامهم ، وفتح لهم في البلاد شرقاً وغرباً ، وأوطأ لهم رقاب الكفار والأعداء سلماً وحرباً ، وفتح لهم وعلى أيديهم الفتح المبين ، وجعل الخلافة كلمة باقية في عقبهم الى يوم الدين .

لا زال ملكهم في رفعة وعـــلا — وسعدهم بمدا الأيام موصول
يفنوا العدا ويقيموا الدين من أودٍ — وسيفُ نصرهم لله مسلـــول

وإني لما رأيت الخلافة العبد الحقية العثمانية باهرة ، وغرر مآثرها الكريمة على أوجه محاسنها سافرة ، وأخبار مكارمها ومآثرها تنتظم نظم الجمان ، وسُوَرَ فضائلها تتلا بكل لسان ، وشموس عوارفها وأنوار محامدها تشرق بكل أفق ومكان ، أردتُ خدمة جلالها ، والتقرب إلى كمالها ، والتفيئ بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتأليف كتاب أؤرخُ فيه أيام الدولة السعيدة المرينية العبد الحقية ، أخلد فيه محاسنها وأسطر مآثرها ، وأذكر غزواتهم وفتوحاتهم ومناقبهم الجميلة وآثارهم ، وما رسموه من المراسم وبنوه من المدائن وفتحوه من البلاد ، وما ملكوه من الأقاليم وما وقع من الحوادث في الوجود في أيامهم ، معتمداً في جميع ما أذكره من ذالك على ما شاهدته وقيدته ، وما رويته عمن أثق به من الأشياخ والثقات من أهل العلم بالتاريخ وأيام الناس والمعرفة بالأنساب ، ونسجته على عشرة أبواب :

الباب الأول في ذكر بني مرين وقبائلهم ونسبهم الصريح ، ونجارهم العالي الصحيح ، ودخولهم المغرب وظهور ملكهم السني المعجب .

الباب الثاني في ذكر الأمير الصالح أبي الأملاك أبي محمد عبد الحق بن محيو وسير أولاده وفضله .

الباب الثالث في ذكر الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق .

الباب الرابع في ذكر الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق .

الباب الخامس في ذكر دولة الأمير الأجل أبي يحيا ابن عبد الحق .

الباب السادس في خلافة أمير المسلمين ، وناصر الدين ، الملك القائم بالحق ، يعقوب ابن عبد الحق .

الباب السابع في خلافة أمير المسلمين ، يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب الثامن في خلافة أمير المسلمين ، عامر ابن الأمير عبد الله ابن أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب التاسع في خلافة أمير المسلمين سليمان ابن الأمير عبد الله المذكور ابن أمير المسلمين يوسف .

الباب العاشر في خلافة ملك الزمان ، وسراج الأوان ، الامام السعيد ، الخليفة العادل الرشيد ، أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن مولانا أمير المسلمين المنصور القائم بالحق ، يعقوب بن عبد الحق ، أطال الله أيامه ، وخلد ملكه ونصر أعلامه ، وأمضا في الأعادي سيوفه وأقلامه ، بمنه وطوله .

وسميته (**الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقية**) .

والله سبحانه يعين على ما أردته ، وينجح القصد فيما أملته ورجوته ، ويعصمنا من الخطأ والزلل ، في القول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب الأول

قال المؤلف عفا الله عنه :

أما بنو مرين فبهم أقام الله تعالا فى المغرب الدين ، وبسيوفهم قمع بجزيرة الأندلس المشركين ، وابقا بها دماء المسلمين .

هم نصروا دين الالاه واظهروا ... على الدين والدنيا من الحق رونقا
بملكهم قد أخمد الله للعدا ... ومن عدلهم ضاء الزمان وأشرقا

فهم الآن سيوف الاسلام ، وحماة دين النبي **محمد** عليه السلام ، وهم أعلا قبائل زناتة حسباً ، وأشرفها نسباً ، واعزها كرماً ، وأحسنها شيَماً، وازكاها ذمماً ، وارجحها احلاماً ، وانفذها رماحاً ، وامضاها حساماً ، وأشدها فى الحروب بأساً ، واكثرها إقداماً ، وأقواها ديناً ، وأصحها يقيناً ، وأوثقها عقداً ، وأوفاها عهداً ، وأوفرها عدداً ، وأطولها فى الشدائد يداً ، وأشرفها فريقاً ، وأقومها طريقاً ، لهم شرف النجار ، وحفظ الجوار ، وحماية الذمار ، ووقود النار ، وإكرام الضيف ، والضرب بالسيف ، والبعد عن الغدر والعار والحيف ، وانشد يقول :

لا يسلمون إلى النوائب جارهم ... يوماً إذا أضحا الجوار يُضيَّع
لهم الرياسة والشجاعة والندا ... والله يُعطى ما يشاء ويمنع

شيَمُهُم وحلاهم التى تحلوا بها واتصفوا بصفاتها : الأدب والدين ، وإكرام العلماء وتوقير الصالحين ، تزينوا بالشجاعة والكرم والتواضع ، وتحلوا بالصدق والوفاء وترك الكذب والتنازع ، لم يزالوا على هاذا السنن القويم ، والمنهج المستقيم ، يعرفون به فى الحديث والقديم ، ولله درُّ القائل فى مدح حَسَبِهم الصميم :

مرين سادة غرٌ كرامٌ ... تحلوا بالشجاعة والسماح
هم القوم الأعزة منذ كانوا ... ذوو الافضال والحسب الصراح

أقاموا المجد فى سمك عـالـي ومدوا العـز فى أرض فيـاح
بأسياف وأرمـاح وجـود ورائحـات وساحـات فسـاح
فآوا كل عـاف فى ذراهم إلى بيض اللها خضر البطـاح
ومن كانت مرين له ظهيـراً فكيف يكون مهضوم الجناح ؟
وقد قام العـلا عنهم خطيبـاً ونادا الجنود حيٌ على الفـلاح
فمـا للفضـل فيهـم مـن زوال وما للمجـد عنهـم من براح

أبقاهم الله تعالا متصلة أيامهم ، منصورة أعلامهم ، نافذة أحكامهم ، ماضية فى الأعادى سيوفهم وأقلامهم .

الخبر عن نسَبِهم الصريح ، ونِجارهم العليٌ الصحيح

قال المؤرخ لأيامهم عفا الله عنه :

ذكر الفقيه الكاتب البارع أبو علي المليانى رحمه الله فى نسبهم ما نذكره إن شاء الله ونقلته من تقييد بخطه :

إعلـم وفقنا الله وإيـاك لطاعته أن بنى مرين فخذ من زناتة ، وهم ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يجفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن شجيج بن واسين بن يصليتن بن مسرى بن زاكيا بن وسيد بن زانات بن جانا بن يحيا بن تمزيت بن ضريس ، وهو جالوت ملك البربر ، ابن رجيح بن مادغيس الأبتر ، بن بر ، بن قيس عيـلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فهم عرب الأصل ، يجيئون من ولد نزار بن معد ، وهو أصح ما ذكر فى نسبهم والله أعلم ، وبه قال أكثر أهل التاريخ والمعرفة بأنساب العرب والبربر ، وفى ذالك يقول الفقيه الأديب مالك بن المرحل يمدح أمير المسلمين يوسف بن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق :

أنتم لأبنـاء عبد الحـق كلهـم فخر وهم للورا فخر إذا افتخروا
فحسبكم شرفـاً أن كان جدكـم بر بن قيس وقيس جده مضر

قال إبراهيم الرازى : قبائل زناتة كلها من ولد بر بن قيس عيلان ،

وقال ابن حنون فى تاريخه لمدينة فاس وظهورهم عليها قال : بنو مرين فخذ من زناتة ، وهم ولد مرين بن مجرز بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يجفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن مسطيب بن جانا بن يحيا بن زانات بن برنى بن صرفى بن رنبك بن مادغيس بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، ومن زانات بن يحيا بن جانا تفرقت قبائل زناتة كلها ، وهم أمم كثيرة وقبائل جمة ، منهم مغراوة ، وبنو يفرن إخوتهم ، وزواغة ، ووجديجة ، وبنو فاتن ، ومغيلة ، ومطغرة ، ومديونة ، وكشاتة ، وملزوزة ومطماطة ، وولهاصة ، ولواتة ، ومرنيسة ، وبنو دمر ، ونفوسة ، وبنو يطوفت ، وبنو يخفش ، وبطوية ، وكزناية ، وبنو ورتطغير ، وبنو يزونت ، وملكيشة ، وعشعاشة ، وسدريكة ، ونفزة ، وجراوة ، ولماية ، وبنو مسارت ، وسدراتة ، وبنو واسين ، وزحيلة ، وسومانة ، وورسيفة ، وبنو تاجرة ، وبنو مرين ، وبنو عبد الواد وإخوانهم بنو تجين ، فهاؤلاء قبائل زناتة ، وكلهم عرب الأصل من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، والسبب فى تغير لغتهم عن لغة أجدادهم العربية إلى اللغة البربرية ما ذكره علماء التاريخ وأهل المعرفة بالأنساب وأيام الناس فانهم اتفقوا على أن مضر بن نزار بن معد كان له ولدان ، إلياس وعيلان ، وأمهما الرباب بنت حيدة ، بن عَمْر بن معد بن عدنان ، وتكنا خندف ، فأما إلياس فهو جد النبي صلا الله عليه وسلم ، ومن نسله جميع قبائل قريش ، وأما عيلان بن مضر فولد ولدين قيس ودهمان ، ومنهما تفرقت قبائل قيس بأسرها .

فأما دهمان فولده قليل ، وهم أهل بيت فى قيس يقال لهم بنو أمامة يعرفون بأمهم .

وأما قيس فولد أربعة رجال وجارية ، وأمهم مزنة بنت أسد بن ربيعة بن نزار .

وأما بر وأخته تماضر فهما شقيقان ، أبوهما قيس بن عيلان ، وأمهما يريغ بنت مجدول بن عمار بن مصفر بن بربر بن قبط بن مصرايم بن حام

البربرية المجدولية ، وكانت القبائل البربرية إذ ذاك تسكن أرض فلسطين وما والاها من بلاد الشام وبلاد مصر ويجاورون العرب فى المساكن والمسارح والمراعى ، ويشاركونهم فى المياه والمشارع والمساعى ، ويظاهر بعضهم بعضاً ، ويتعاملون فى أسواقهم ومواعيدهم بالانصاف والوفاء والرضا ، وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء أهل زمانها وأكملهن ظرفاً وحسباً وأدباً ، فكثر خطابها من كل قبيلة من العرب ، فقال بنو عمها قيس وهم سعد وعمر وحفصة وبر لا تتزوج ابنة عمنا إلا أحدنا ، ولا تخرج منا إلى غيرنا ، فنخيرها فيمن شاءت منا ، فاختارت براً وكان أصغرهم سناً وأحسنهم وجهاً وأكملهم شباباً ، فتزوجته لحسن صورته ، وفضّلته على إخوته ، فحسدوه عليها ، وهموا بقتله من أجلها ، وكانت أمه يريغ بنت مجدول من دهاة النساء ، فخافت على ولدها من إخوته ، فبعثت إلى البهاء بنت دهمان ، فأعلمتها الخبر وتواطأت معها على الخروج هي وابنها إلى بلاد إخوتها البربر حيث تأمن على ولدها من إخوته ، ثم بعثت إلى إخوتها وقومها من البربر فأتوها سراً فسارت معهم هي وولدها بر وكَنَّتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر ، وهي فلسطين من أرض الشام ، فنزل برّ بين أخواله من البربر فى أحسن جوار ، وأعز دار ، فاعتز بأخواله وقوي بهم عضده وامتدت أطنابه ، فأعرس هنالك بابنة عمه البهاء ، فولدت له ولدين مادغيس وعلوان ابني بر بن قيس عيلان ، فأما علوان فمات ولم يعقب قاله جميع أهل النسب ، وأما مادغيس بن بر فكان يلقب بالأبتر وهو أبو البتر من البربر ، وإليه يرفعون أنسابهم ، ومن ولده جميع قبائل زناتة ، وفى ذالك يقول بعض أدباء زناتة الذين سكنوا الأندلس :

أيها السائل عن أحسابنــــا	قيس عيلان بنو العزّ الأول
وبنو بر بن قيس مَن بــــه	تضرب الأمثال فى كل أهل
إن نسبنا فبنو بر النــــدا	طارد الأزمة نحـار الابـــل
من تردا سالِفَ المجد عــلا	وبروداً فاكتسا منها حلــل
إنّ قيساً يعتزى برّ لــــه	ولبرٍّ يعتزى كلّ بطـــــل
حسبك البربر قومى إنهــم	ملكوا الأرض بأطراف الأسل
وببيض تضرب الهام بهـــا	هام مَن كان عن الحقّ نكل

ولما فتح حسان بن النعمان إفريقية والمغرب كان أكثر جيوشه قبائل قيس ، فأتا جبل أوراس من بلاد إفريقية فوجد قبائل زناتة قد اجتمعت به لقتاله ، فدعاهم إلى الاسلام ، وقال لهم يامعشر زناتة أنتم إخواننا في النسب ، فلِمَ تخالفونا وتعينون علينا أعداءنا ؟ أليس أبوكم بر بن قيس بن عيلان ؟ قالوا بلى ! ولاكنكم معشر العرب تنكرون لنا ذالك وتدفعوننا عنه ، فاذا أقررتم بالحق ورجعتم إليه فاشهدوا لنا به على أنفسكم ، فاجتمعت وجوه قيس وأشرافها وأشرافُ زناتة وأقيالُها وأشهدوا على أنفسهم مَن حضرهم من وجوه العرب ورؤساء أهل إفريقية من البربر والروم وكتبوا بينهم كتاباً فيه : « باسم الله الرحمان الرحيم ، هاذا ما شهد به أنجاد قيس عيلان لاخوانهم زناتة بنى بر بن قيس عيلان أنا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فأنتم والحمد لله إخواننا نسباً وأصلا ترثوننا ونرثكم ، نجتمع في جد واحد ، وهو قيس عيلان ، فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، لم نزل نعرف ذالك ونتوارث علمه وصحته عن آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا ، يأخذه كابر عن كابر ، وعادل عن عادل ، فليعرفوا ذالك ويلزموا أنفسهم وأموالهم معرفته امتثالا لقوله تعالا : (واتقوا الله الذى تسّاألون به والأرحام) واقتدوا بقوله (ص) (واتقوا الله وصلوا الأرحام) ، وقد قال (ص) ، حين خطب فى حجة الوداع : أيها الناس ، اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، واحفظوا أنسابكم ، والله على ما نقول وكيل » .

قال الراوى :

فلما وقع هاذا الاشهاد أسلمت قبائل زناتة كلها فى ذالك اليوم ، وذالك سنة ثمانين من الهجرة بعد أن كانوا أهل أهواء مختلفة ، وأديان متفرقة ، وفى ذالك يقول الطرماح بن ساعدة القيسى هاذه الأبيات الخمسة :

ياآل بر بن قيس مرحباً بكمُ	قيس أبى وأبوكم حيثُ ننتسب
ما قلت إلا الذى قد كنت أعلمه	وكل شيء إلى وقتٍ له سبب
الله يعلم أنى ما كذبتكم	والقول أقبحه البهتان والكذب
بر بن قيس وعيلان له شرف	عال إليه انتها الافضال والحسب

نفسي فداء بني بر وإن غضبت　　يوماً فدام لها الارغام والغضب .

وقال بعض العرب الذين نزلوا الأندلس وأقاموا قاطنين بها إلى أيام الفتنة البربرية الواقعة بالأندلس بعد الأربعمئة الماضية من الهجرة يستألف قبائل زناتة من البربر ، ويذكر قرب نسبهم من العرب واتصال رحمهم بهم (طويل) :

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا　　ألا قف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم أنا والبرابر إخوة　　نمانا وهم جدٌ كريمُ المذاهب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرا　　لهم حرمة تشفي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع وإخوة　　على رغم أعداءٍ لئام المناقب

وفي ذالك يقول سابق المطماطي في حين قتال البربر مع الروم بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك :

أيامعشر الروم ارحلوا لبلادكم　　وخلوا لنا عنها بطي المراحل
فقد قصدتكم بربرٌ بسيوفها　　وأحلافها أهل الرماح الذوابل
قبائل بر ابن قيس وخندف　　وذى يمن في عزها المتطاول

وأبنا خندف لأنهم إخوة قيس، وخندف اسم إمرأة نُسب بنوها إليها ، وهما إلياس وعيلان ابنا مضر بن نزار ، وذكر اليمن لأن قبائل من البربر ينتمون الى العرب اليمنية ، منهم صنهاجة ينتمون الى حمير ، وكذالك هوارة ينتمون الى عاملة ، وكتامة ينتمون إلى الجيهم .

وتوفي بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وترك ولده مادغيس الأبتر بن بر بن قيس فيهم ، فنشأ بين أظهرهم ولقب بالأبتر لأنه لم يكن له إلا هو أبو البتر من البربر ، فولد مادغيس بن بر زحيج بن مادغيس بن بر ، وولد رحيج بن مادغيس أربعة رجال ، أولهم لوا ، وضريس ، ونفوس ، وأداس ، بنو رحيج ، فنشأوا بين أخوال جدهم بر من البربر ينطقون بلغتهم ، ويتزينون بزيهم ، وينضافون إلى جملتهم ، فانتشرت ذرية بر بن قيس في

البربر وكثروا حتى صاروا فى أمم لا تـُعَدّ ولا تحصا ، إلا أن لسانهم باللغة البربرية ناطق ، وحالهم لحالهم مطابق وموافق ، وفى ذالك تقول تماضر بنت قيس ترثى أخاها وتبكيه ، وتذكر بعده عن وطنه وذويه ، فى أشعار كثيرة ، من ذالك قولها :

لتبكى كل باكية أخاها — كما أبكى على بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحا — ودون لقائه إنضاء عيس

وقالت أيضاً :

كأنى وبراً لم تعز ديارنا — بنجد ولن نقسم نهاباً ومغنما
وشطت ببر داره عن بلاده — وطوح برٌ نفسَه حيث يمّما
وأزرت ببر لكنةٌ أعجمية — وما كان بر فى الحجاز بأعجما

ولقد أحسن فى ذالك السياق صاحب أرجوزة **نظم السلوك فى ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك** أبو فارس عبد العزيز الملزوزى الزناتى (2) حيث يقول فى فصل منها :

فجاورت زناتةُ البرابرا — فصيـّروا كلامَهُم كما ترا
ما بدل الدهرُ سوى أقوالهم — ولم يبدل مُقتضا أحوالهم
بل فعلهم أربا على فعل العرب — فى الحال والآثار ثم فى الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدلا — وحالهم عن حاله تحولا
لا يعرفون اليومَ ما الكلام — ولا لهم نطقٌ ولا إفهام
وان تمادتْ بهم الأحوال — لم تبقَ فى الدهر لهم أقوال

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

ومن مرين بن ورتاجن بن ماخوخ ، تفرقت قبائل مرين وعشائرها ، وإلى جده ماخوخ الزناتى انتهت رياسة زناتة فى وقته ، لأنه كان فى زمانه

---

2) فى الأصل الكتامى ، والصواب الزناتى ، لأن قبيلة ملزوزة من شعب زناتة وليست من شعب كتامة .

احد الشجعان الأجواد الأبطال المضروب بهم المثل فى الشجاعة والكرم وعلو الهمة ، وكان ينحر كل يوم جملين من إبله وعشرين رأساً من الضان فيطعمها الضيفان ومَن يحضره من الناس ، وكان قد اتخذ فى حلته قباباً وخياماً مضروبة مفروشة بالقطف والوسائد قد اعتدها لنزول الضيفان والوراد وأبناء السبيل ، وكان يقعد مع أشياخ زناتة : مغراوة ، وبنى يفرن ، وبنى واسين ، ونفوسة ، وغيرهم يلعب بتداس بأقلام الفضة والذهب ، فاذا فرغ من لعبه وأراد القيام أنهبها جلساءه ، فولد ماخوخ المذكور ولده ورتاجن بن ماخوخ ، وولد ورتاجن بن ماخوخ مرين ، فولد ورتاجن بن مرين جميع شعوب قبائل بنى ورتاجن ، وهم تسع عشرة قبيلة ، أولهم بنو الخير ، وهم رؤساؤهم ، ثم بنو وارثن ، ثم بنو بيضاء ، ثم بنو خلف ، ثم بنو تيورت ، ثم بنو وازن ، ثم بنو زنطار ، ثم بنو فودود ، ثم بنو تاجاسنت ، ثم بنو وومزدر ، ثم بنو وسان ، ثم بنو نعمان ، ثم بنو أبى الحسن ، ثم بنو سرطان ، ثم بنو مصرى ، ثم بنو مزال ، ثم مجدول ، ثم يطرنكا ، ثم منار .

وأما جرماط بن مرين فولد ولديـَن : فجوس ويابان ابني جرماط بن مرين ، فولد يابان جميع قبائل بنى يابان ، وولد فجوس ثلاثة أولاد ، واطاس ، وتنالفت ، ووزرير ، وولد وزرير بن فجوس ولدين : ينجاسن ، ومحمداً ، وولد محمد سبعة رجال ، وولد ينجاسن جميع قبائل بنى ينجاسن ، ومن ولد محمد بن وزرير عسكر ، ثم حمامة ، وهما شقيقان ، وفى ذرية حمامة جعل الله الرياسة .

فأما عسكر بن محمد فوُلِد له جميعُ قبائل بنى عسكر ، ولهم كانت رياسةُ مرين فى القديم ، وأول مَن رأس منهم المُخَضَّبُ بن عسكر بن محمد ، تملَّك على جميع بوادى زناتة وبلاد الزاب ، وضرب الطبول ونشر البنود وقاد الجنود وأذاق ملوك لمتونة وملوك تكلاتة الصنهاجيين شراً كثيراً ، ولم يزلْ يُغير فى بلادهم بتلمسان وبجاية والقلعة وغير ذالك من البلاد يهزمون وينهبون ويهزم الجيوش ويقتل الرجال ، وكانوا يصانعونه ويهادونه ليُسالِمَهم ، فكانوا معه على ذالك إلى أن انقضت دولتهم وغلبهم

الموحدون على ملكهم . وفتح عبد المومن بن علي تلمسان ووهران ، فبعث بما وجد فيهما من الأموال والذخائر والسلاح إلى تينمل ، وكان الأمير المخضب بن عسكر إذ ذاك قد ملك أكثر بوادى تلمسان وقوي أمره بتلك البلاد ، إلا أنه كان عند حصار عبد المومن للمرابطين بتلمسان غائباً ببلاد الزاب يحارب بعض قبائل زناتة ، فكان أهل تلمسان والمرابطون فى طول حصار عبد المومن إياهم يهددون الموحدين بقدوم المخضب بن عسكر ، فأسرع السير فى خمسمئة فارس من بنى مرين ، وأخذ على القبلة حتى خرج بوادى تـلاغ ليقطع بالأموال والسلاح التى بعث بها عبد المومن إلى تينمَّل ، فأنذر عبد المومن بمسيره ، فبعث إليه جيشاً من ثلاثمئة فارس من الموحدين والحشم مع الشيخ عبد الحق بن معاذ الزناتى العبد الوادى ، فالتقا به بفحص مسون وهو قد حاز المال ، فكان بينهما قتال عظيم ، قُتِل فيه الأمير المخضب وهزم أصحابه وأخذ الموحدون طبوله وبنوده ونهبوا أمواله ، وحُمِل رأسه إلى عبد المومن ، وذالك فى جمادا الآخرة من سنة أربعين وخمسمئة . وفى أيـام المخضب دخلت قبائل من زناتة وغيرهم من البربر فى بنى مرين ، وانتسبوا فى قبائلهم ، فهم فيهم الى اليوم .

وأما بنو علي فليس هم من بنى مرين ، وإنما هم شرفاء حسنيون ، كان جدهم علي بن صالح الحسنى السرغينى رجلا صالحاً ورعاً حافظاً لكتاب الله ، قدم من بلاد المصامدة برسم المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي (ص) ، فقضا حجَّه وزار النبي (ص) وانصرف راجعاً الى المغرب ، فمرَّ فى طريقه بقبلة زاب إفريقية ، فوجد فيها أحياء بنى مرين بازاء جبـل ايكجان ، فنزل منها على محمد بن وزرير ، فأقام عنده أياماً فاستحسنه محمد ابن وزرير فرغب منه أن يقيم عنده يُصلِّى بهم الفريضة ويُعلِّم صبيانَهم القرآن ، فأجابه إلى ذالك . فأقام عندهم ، وتزوج منهم ، وولِد له بينهم ثلاثة عشر ولداً ذكراً ، فنشأ بنوه وحفدته وذريته بينهم ، وكانوا فى بنى مرين كأحد شعوبهم وقبائلهم ، أما أنتم منسوبون إلى شرفهم ، وفى ذالك يقـول بعض الأدباء رحمه الله تعالا .

لأن بنى علي من علي هم الشرفاء من نسل الامام
بجدهم حووا كل المعالى وحازوا الفخر أجمع فى نظام

وكان لبنى علي شرف وجمال وشجاعة وكرم ، فسادوا بذالك وبشرفهم فظهروا ، وكذالك بنو وطاس ليس هم أيضاً من بنى مرين ، وإنما هم من صنهاجة من قبائل لمتونة من ولد وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين ملك المغرب بأسره ، والأندلس بأسرها وبلاد القبلة إلى السودان ، وخطب له على أزيد من ألفي منبر ، وبنو وطاس مجمعون على ذالك ، والقوم أعرف بأنسابهم ، وسبب دخولهم فى قبائل بنى مرين أنه لما انقضت أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم خرج جدهم وطاس بن المعز بن تاشفين فاراً بنفسه من تلمسان أمام عبد المومن بن علي أمير الموحدين القادمين عليهم ، فلحق ببلاد الزاب ولجأ إلى أحياء بنى مرين ، فاستجار بهم فأجاروه ، فلم يزل مقيماً بين أظهرهم هو وبنوه وذريته من بعده فى أحسن جوار وأعز دار إلى أن ظهر بنو مرين على الغرب وغلبوا الموحدين على ملكهم واستوطنوا بلادهم فكانوا من جملة قبائلهم محسوبين فى عدادهم وكان لهم فيهم رياسة .

وأما سجم بن محمد بن وزرير فولد جميع بنى سجم ، وولد وراغ بن محمد جميع بنى وراغ ، وولد فرنت بن محمد جميع بنى فرنت ، وولد شجيمان بن محمد بنى شجيمان ، وولد سنكيان جميع بنى سنكيان ، وهاؤلاء الخمس قبائل من أولاد محمد بن وزرير يعرفون بتربيعين .

وأما حمامة بن محمد فولد ولدين : خديماً وأبا بكر ، وإلى أبى بكر بن حمامة انتقلت الرياسة بعد قتل ابن عمه المخضب ابن عسكر ، فلم يزل أبو بكر بن حمامة أميراً على قبائل الجميع من بنى مرين إلى أن توفي رحمه الله ، فترك ثلاثة أولاد : محيو ، ويحيا ، وشعيباً ، فولد محيو بن أبى بكر ثلاثة رجال : سناف ، ويحياتن ، وعبد الحق ، فولد عبد الحق بن محيو عبد الله وإدريس ، ورحو ، وعثمان ، ومحمداً ، وأبا بكر ، وأبا عياد ، ويعقوب ، وأختهم ورتطيم .

فأما عبد الله وادريس ورحو فهم أشقاء ، أمّهم سوطُ النساء من بنى علي ، وأما عثمان ومحمد فهما أيضاً شقيقان ، وأمّهما النوار بنت أبى بكر بن حفص ، وأما أبو عياد فأمه أم الفرج العبد الوادية من بنى والى ، وأما يعقوب بن عبد الحق فأمّه أمُّ اليمن بنت محلى البطوئى ، وكانت من خيِّرات النساء ، ذاتَ فضل وعقل ودين ، صوامة قوامة ، حجّت بيتَ الله الحرام ، ورجعت إلى المغرب ثم عادت إلى الحجاز لتحجَّ ثانية ، فتُوفيت ببلاد مصر فى قرية على النيل وهي قاصدة إلى مكة شرفها الله تعالا .

وفى عبد الحق وذريته جعل اللهُ تعالا الملكَ والرياسة ، وهو أبو الأملاك من بنى مرين ، وأصلهم الذى يرجعون إليه ويفتخرون به .

أصلٌ نما فى المكرمات ففرعُه	سامى نداه بالمحامد مثمرا
هم آل عبد الحق حقاً إنهم	ورثوا العلا والمجد أكبر أكبرا
أهل السيادة والرياسة والندا	بسيوفهم حلّوا الذرا منعوا الورا

فولد كل واحد من أولاد عبد الحق جماعة ، وجعل الله فيهم الكثرة ، وبارك فيهم ، وولد يعقوب بن عبد الحق أحد عشر ولداً ، وهم عبد الله ، وعبد الواحد ، ويوسف ، وعثمان ، ومحمد ، ومنديل ، وإبراهيم ، وعُمر ، والعباس ، وأبو يحيا ، ويعيش ، وولي الخلافةَ منهم اثنان : يوسف ، وعثمان .

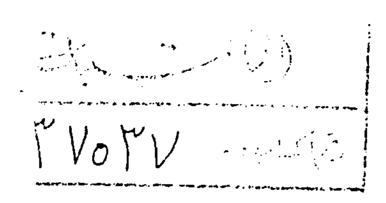
قال المؤرخ لأيامهم عفا الله عنه :

لما قُتِل المخضب بن عسكر بن محمد بن وزرير المرينى انتقلت رياسة مرين إلى ابن عمه أبى بكر بن حمامة بن محمد ، فلم يزلْ أبو بكر بن حمامة أميراً ورئيساً على قبائل مرين إلى أن توفّي رحمه الله سنةَ إحدا وستين وخمسمئة ، فقام بأمر بنى مرين بعده ولده محيو بن أبى بكر بن حمامة ، فلم يزلْ محيو أميراً مطاعاً على بنى مرين مُحبّباً فيهم يقوم بأمرهم وينظر فى أحكامهم إلى أن توفي رحمه الله شهيداً من جراحة أصابتْه فى غزاة الأراك التى كانت ببلاد الأندلس فى سنة إحدا وتسعين ، فانه كان شهدها مع أمير المومنين يعقوب المنصور ، متطوعاً مع جماعة ، وعقد له أمير المومنين فى ذالك

اليوم على جميع قبيلة مرين وأبلا فى ذالك اليوم بلاء حسناً ، وأصيب فيه بجراحات ، فرجع إلى بلاده من الغزوة ، فاشتدت عليه جراحاته فمات رحمه الله ، وذالك فى شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة ، فقام بعده بأمر بنى مرين ولده الأمير المبارك عبد الحق ، وكان الأمير عبد الحق قد نشأ على الخير والدين والصلاح والفضل ، وهو الذى أدخل بنى مرين إلى المغرب لما أراد الله تعالا من ظهور ملكهم فيه واستيلائهم عليه .

الخبر عن دخولهم المغرب وظهور ملكهم السنى المعجب

لما أراد الله تعالا إظهارَ الدولة السعيدة المرينية المباركة العبد الحقية ، ونسْخَ الدولة الموحدية المؤمنية لِما سبق فى علمه وقَدَرِهِ فى سابق قضائه ومبرم حكمه ، كما قال تعالا فى كتابه العزيز ، ومُحكَمِ وحيِه البليغ الوجيز ، الذى ليس فيه لغوٌ ولا التباس (وتلك الأيام نُداولها بين الناس) ، وكان مَن سلَف وتقدم من ملوك الموحدين ، أولى حزم ورأي ودين ، إلى أن كانت وقعة العُقاب ، التى آذنت دولتَهم بالذهاب ، وذالك فى سنة تسع وستمئة ، فرجع الناصرُ مهزوماً ذا مهانة وانكسار ، فدخل حضرةَ مراكش ، ولم يزل ملكُه فى نقص وأمرُه فى إدبار ، إلى أن توفي بها فى الحادى عشر لشعبان سنة عشر وستمئة مفجوعاً ، ووليَ ولدُه يوسف المستنصر بعد أبيه ، وكان صبياً هَلوعاً جَزوعاً ، لم يبلغ الحُلمَ ولا جرَّب الأمور ، فاعتكف فى قصره على اللهو واللعب والخمور ، وأسلم الملك لأعمامه وقَرابته ، وفوض الأمور إلى وزرائه وأشياخ دولته ، فتحاسدوا فيما بينهم على الرياسة ، وناقض بعضُهم بعضاً تكبُّراً ونفاسة ، وأدرك رؤساءهم وولاتهم الاعجاب ، فأضاعوا الأمور وأغلظوا الحجاب ، وقطعوا الأرحام ، وجاروا فى الأحكام ، وولوا أمرهم وأحكامَهم السَّفَلَة ، وأبعدوا العلماء وقربوا الجَهَلَة ، فبدا فى ملكهم الفساد ووهنٌ فى دينهم ، وظهر الجور فى أحكامهم وبلادهم والنقص فى سلطانهم ، فولت أيامُهم واختلفت كلمتُهم ، وجعل الله بأسهم بينهم ، وبعث لفنائهم



وذهاب ملكهم بنى مرين وأيدهم عليهم فأصبحوا ظاهرين (3) ، ومكن لهم فى الأرض وجعلهم أيمة وجعلهم الوارثين ، وكان بنو مرين أهل تصميم وصحة يقين ، ينزلون بأنعامهم فى السباسب والصحارى من قبلة القيروان ، إلى صحراء بلاد السودان ، لا يعمرون إلا القفار ، ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار ، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان ، ولا يرضون بذل ولا هوان ، لهم هِمَمٌ عالية ، ونفوس إلى المعالى سامية ، لا يعرفون الحرث ولا التجارات ، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات ، جل أموالهم الابل والخيل ، ودأبهم الحرب وخوضان الليل ، وشيمتهم إكرام الضيف ، وضرب أعدائهم بالسيف :

فبنو مرين من بنى مضر الألا ... نصبوا منار الحل والاحرام
من قيس عيلان الذين بهديهم ... شدت على التقوا عُرا الاسلام
المخمدون بجدهم وسيوفهم ... فى الحرب حِدةَ عُبَّدِ الأصنام

وقال آخر فى مدحهم أيضاً :

إن الكرام بنو مرين كلهم ... ورثوا العلا والمجد أوحد أوحدا
قسموا المعالى بالسواء وفضلوا ... أبناء يعقوب المليك الأسعدا

وكانت طائفة من بنى مرين يدخلون بلاد المغرب فى زمان الصيف فيرعَوْن به أنعامهم ، ويكتالون منه ميرتهم ، فاذا توسط فصل الخريف اجتمعوا ببلدة كرسيف ، فاذا استوفا بها جمعُهم شدوا رحالهم ، وقصدوا بلادهم ، كان ذالك دأبهم على مر الزمان ، وتعاقُب الأحيان ، إلى سنة إحدا وستمئة فوقعت بينهم وبين بنى عبد الوادى وبنى واسين حربٌ بسبب

______

3) ورد فى النسخة الخطية التونسية بعد كلمة ظاهرين ما يلى :

قف ، هاهنا نصحة (كذا) حاجزة من الخبر انبتر شىء من الكتاب لاطالته وكثرة فرطه ، لكنها قريبة العهد والله أعلم لأجل ما ذكر فى دخول بنى مرين المغرب وظهور ملكهم السنى المعجب فى الورقة التى تليه ، ثم يعود الكلام الى بنى مرين .

ولكن بمقارنة عبارات (الذخيرة السنية) بعبارات (القرطاس) يظهر أن ليس هناك فصم ولا انقطاع .

إمرأة فافترقوا من تلك السنة ، وقصدت مرين نحو المغرب ، فنزلوا بالجبل المطل على وادي ملوية وهو الجبل الفاصل بين بلاد المغرب وبلاد الصحراء ، فأقاموا به إلى سنة عشر وستمئة ، فدخلت طائفة منهم المغرب ليمتاروا على عادتهم ، فوجدوا المغرب خالياً قد باد أهله ورجاله ، وفني خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع فى غزاة العقاب ، فأقفرت بلادهم فعمرها البوم والسباع والذئاب ، فأقاموا بمكانهم ، وبعثوا البريد إلى إخوانهم يخبرونهم بحال البلاد وخلائها ، وخصبها ونقاية هوائها ، وسعة مسارحها ومراعيها وعذوبة مياهها ، وكثرة أنهارها ، والتفاف أشجارها ، وبركات ثمارها ، ويأمرونهم بالمسير إليها ، والقدوم عليها ، فليس ثم مَن يصدكم عنها ولا مَن ينازعكم فيها . فوصل الخبر إلى أشياخ مرين فأعلمهم بخلاء البلاد وخصبها ، وضعف الموحدين عن حمايتها ، فشدوا رحالهم وأقبلوا الى المغرب مسرعين ، وإلى داعيهم مطيعين ، وعلى الله تعالا فى جميع أمورهم متوكلين ، يقطعون المهامه والسباسب ، على ظهور الخيل والنجائب ، يرومون الدنو والبلاغ ، حتى وصلوا الى وادي تلاغ ، فولجوا المغرب من ذالك الباب ، بالخيل والابل والمراكب والقباب ، فى جيوش كالسيل ، أو الليل ، أو النمل ، أو الجراد المنتشر ، وذالك لأمر قد قضي وقدر ، وليظهر ما كان فى الغيب مجهولا ، وليقضي الله أمراً كان مفعولا .

قدمت مرين إلى بلاد المغرب ... والسعد يصحبها لنيل المطلب
فى عام عشر بعد ست قد مضت ... مئين فاحفظه وقيد واكتب

وقال صاحب أرجوزة نظم السلوك عبد العزيز الملزوزي رحمه الله :

فى عام عشرة وستمئة ... أتوا إلى الغرب من البرية
جاءوا من الصحراء والسباسب ... على ظهور الخيل والنجائب

فدخل بنو مرين المغرب فى تلك السنة والسعد قد ألقا بأيديهم مقاده ، فوجدوا ملوك الموحدين قد تهاونوا بالأمور ، واعتكفوا فى قصورهم على اللهو وركنوا إلى الغيد فى القصور ، فأدّا ذالك بهم إلى الوهَن والقصور ،

فحل بنو مرين بالمغرب ، والقدرُ يُيسر لهم ملكه ويقرب ، فانتشرت قبائلهم في بلاده كالجراد ، وملأت حللهم وعساكرهم النجود والوهاد ، فلم يزالوا ينتقلون في أقطاره مرحلة بعد مرحلة ، حتى أبادوا الجيش عام المشعلة ، وهو عام ثلاثة عشر وستمئة .

أخبرني من أثق به من أهل العلم والمعرفة بالتاريخ وأيام الناس ، وهو الشيخُ الفقيه أبو العباس ابن الجبر وأدركته وقد أخذتْ منه السن العالية : أن بني مرين أنجدهم الله تعالا لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وأنحائه ، وانتشرت فرقُهم في جباله وبطحائه ، وشنوا الغارات على قراه ومدنه ، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه ، إلا أن كل من أذعن لهم بالطاعة سالموه ، ومن نابذهم قاتلوه وقصموه ، ففر الناس أمامهم يميناً وشمالا ، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصناً ومآلا ، وخلت المشاجر وقلّت العمارات ، ووقع الخوفُ في البلاد والطرقات ، وغلت الأسعار ، في جميع الأمصار ، فاتصل خبرهم بمَلِكِ الموحدين وهو أمير المومنين يوسف المستنصر فأطرق يفكر في أمرهم ويدبر ، ثم دعا بالوزراء والأشياخ من الموحدين ، فشاورهم فيما اتصل به من أمر بني مرين ، فقالوا ياأمير المومنين : لا تهتم بأمرهم ، ولا تشغل قلبك بحالهم ، فانهم شرذمة قليلون ، وأنا إن شاء الله فوقهم قاهرون ، وهم مع ذالك أضعفُ جنداً ، وأقلُ عدداً ، ولكنا لا ندعُهم لقاً ، ولا نتركهم سدًا ، بل نبعث لهم جنداً من أنجاد الموحدين ، يبادرهم بالغزو في الحين ، فيقتل رجالهم ، وينهب أموالهم ، ويسبي نساءهم ، وينسف آثارهم ، ويشرد بهم مَن خلفهم ، ويُنذر بهم مَن سواهم ، فبعث إليهم المستنصر جيشاً من عشرة آلاف فارس من الموحدين والعرب والحشم ، وقدّم عليهم الشيخ أبا علي بن وانودين ، وأمره باستئصال مرين وقطع شأفتهم وإفنائهم ، وقال له : اقتل الوالد والولد ، ولا تُبق منهم على أحد ، وكتب إلى عماله على مدينة فاس ورباط تازة وهو السيد إسحاق بن يوسف بن عبد المومن والد المرتضا أن يحشد قبائل العرب ويخرج معه إلى قتال بني مرين ، فارتحل إسحاق وأبلغه أمير المومنين المستنصر ، فسارع اليه وبعث الى قبائل مكناسة ، وتسول ، والبرانس ،

وسدراتة ، وهوارة ، وصنهاجة ، وفشتالة ، ولمطة ، وغيرهم من قبائل فاس وقبائل الرباط (4) ، فحشد الجميع وأقبلوا بهم نحو مرين ، فسمعت مرينُ باقبالهم ، فتأهبت لحربهم ونزالهم ، وتألفت قبائلها ، واجتمعت عشيرتها ، وتشاور رؤساؤها وأقيالها فاتفق رأيهم وأجمع جميعهم على الاقامة فى البلاد والمحاربة لمَن خالفهم ، وأن يجمعوا بقاع الريف حريمَهم وأموالَهم ففعلوا ذالك ، ثم أقبلوا مستعدين للقاء جيوش الموحدين ، فالتقا الجمعان بمقربة من وادى نكـور ، فكان بينهم حـرب عظيم مذكور، يباكرون الحربَ ويراوحونه ثلاثة أيام ، فلما كان اليومُ الرابع رأا السيد إسحاق وأبو علي بن وانودين أن يرتحلا بجيوشهما إلى ناحية رباط تازة طمعاً فى أن يتبعهم بنـو مريـن فيتوغلوا فى البلاد فيتمكنوا منهم ويستأصلونهم بالسيـف ، فسار السيد إسحاق وأبو علي بن وانودين بجيوشهما وحشودهما حتى نزلوا بفحص الوادى ما بين الرباط والمقرمدة ، ومرين تتبعُهم فى أعقابهم ، يرتحلون برحيلهم ، وينزلون لنزولهم ، وينهبون ما قدروا عليه من أطراف محلّتِهم ، فلما وصل الموحدون إلى فحص الوادى وعلموا أن مرين توغلت فى البلاد فروا راجعين فى وجوههم ، فالتحم القتال هنالك بينهم من أول النهار إلى وقت العصـر ، فنمح الله تعالا مرين النصر والفتح المبين ، فهزموا جيوش الموحدين ومَن ظافرهم من القبائل الواصلين ، وأيَّدهم عليهم فأصبحوا ظاهرين ، فقتلوهم قتلا ذريعاً ، وفر مَن أفلت منهم تحت ظلام الليل خائفاً جزوعاً ، واحتوتْ مرين على جميع ما كان فى عسكرهم من الأثاث والسلاح والأموال ، والخيل والعبيد والبغال ، فقويت بذالك مرين قوة عظيمة ، وشكروا الله تعالا على ما منحهم من نصره وخولهم من نعمه الجسيمة ، وهابهم جميع مَن بالمغرب من الناس ، ودخل جلُ جيش الموحدين عراة إلى رباط تازة ومدينة فـاس ، وأكثرهم جرحا ومنهزمين ، وبالربيع والمشعلة مستترين ، قد علاهم الشعث والغـار ، وبدت عليهم الذلةُ والصغار ، دموعُهم مرسلة ، ونفوسهم بالحزن مشعلة ، فسمي ذالك العام عام المشعلة (5) .

---

5) المشعلة نبات ، سمى بها عام 613 لأن منهزمى الموحدين كانوا يخصفون عليهم من ورقه أثناء وصولهم الى فاس فارين أمام بنى مرين . ظ عن عام المشعلة البيان المغرب لابن عذارى ص 244 طبع تطوان .

4) رباط تازة .

يحكى أن السيد إسحاق لما وصل الى مدينة فاس مهزوماً وقف بباب الفتوح ليتدارك به الناس فيدخل بهم البلد . فبينما هو واقف هنالك إذ أقبل عليه من أهل عسكره عراة مستترين بالمشعلة ، فقال لهم ما هاذا ؟ فقالوا له في مدتكم المباركة ياسيدنا وتحت لوائكم المنصور ، فمن ذالك العام ظهر أمر بنى مرين ، ومن تلك الوقيعة بدا الضعف والوهن فى ملوك الموحدين ، فخلت بلادهم ، وقلّ خراجُهم ، وفني أشرافهم ، فساد أشرارهم ، وقتل حماتهم وأنصارهم ، وجعل الله بأسهم بيْنهم ، فكان أشياخهم يُولون سلطاناً ثم يخلعونه ويبايعون غيره ، ثم ينكثون عليه فيقتلونه وينهبون أمواله ويقتسمون خوله وعياله ، فولوا بعد موت المستنصر عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن . ثم خلعوه وقتلوه وبايعوا بعده العادل بن أخيه ، ثم نكثوا بيعتَه فدخلوا قصره فخنقوه وجعلوا رأسه فى خصة من الماء حتى مات ، وبعثوا إلى أخيه المامون ببيعتهم ثم بدا لهم فيها ، وعليه نكثوا وبايعوا ابن أخيه يحيا فى الحين وتلبثوا ، فضعف ملكه بذالك وذوي ، وظهر أمر بنى مرين واعتزّ وقوي .

الباب الثانى

فى ذكر الأمير الصالح المبارك عبد الحق رحمه الله وذكر سيَره الجميلة ، ومآثره المحمودة الجليلة ، وذكر رياسته وإمارته على بنى مريـن ، وما كان عليه من الفضل والتُقا والدين .

قال المؤلف لهاذا التاريخ رحمه الله :

هو الأمير أبو محمد عبد الحق ابن الأمير أبى خالد محيو ابن الأمير أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزرير ، بن فجوس ، بن جرماط ، بن مرين ، فهو أمير ابن أمير ابن أمير ، إلى جده مرين .

ولما توفي والده محيو بن أبى بكر اجتمع أشياخ مرين بتمامة فقدموا على أنفسهم عبد الحق ، وكان الأمير عبد الحق فى قبائل مرين مشهوراً بالتُقا والفضل والدين ، والصلاح والبركة واليقين ، معروفاً عندهـم بالـورَع والعفاف ، موصوفاً فى أحواله وأحكامه بالعدل والانصاف ، يطعم الطعـام ويكفل الأيتام ويؤثر على نفسه المساكين ويحنو على الفقراء والمستضعفين (البسيـط) :

عفُّ اللسان عفيـفُ الفرج تحمده ... فى كل حال له فى الدين تصميـم
ذو عزة وتقا قد حاز كـلَّ عُـلا ... له لَدا الناس تبجيـلٌ وتعظيـم

وكانت له بركة معروفة ودعاء مجاب ، قلنسوته وسراويله يتبرك بهما فى جميع أحياء زناتة ، تحمل الى الحوامل اللواتى صعُب عليهن الوضع فتَهون عليهن الولادة ببركته ، وكان بقيةُ مائه يحمله الناس تبركاً بـه ، فينشرون به مرضاهم ، وكان رحمه الله من أهل الفضل والدين ، يسرد الصوم ، فلا يزال صائماً فى شدة الحر ، قائماً فى ليالى البرد ، ولا يُرا مفطراً إلا فى أيام الأعياد خاصة ، كثير الذكر والتسبيح والأوراد والأذكار ، لا يكاد يفتُر عن الذكر على أي حالة كان ، ولا يأكل إلا الحلال المحض من طيِّب كسْبه

ولحوم إبله وغنمه وألبانها أو مما يُعانيه بيده من الصيد ، فكان رحمه الله فى قبائل مرين عالماً مشهوراً ، وأميراً مُطاعاً مذكوراً ، يقفون عند أمره ونهيه ، ويصدرون فى جميع أمورهم عن رأيه .

قال المؤلف رحمه الله :

أخبرنى الشيخ الفقيه القاضى المبارك عبد الله بن الودون أنه قدم على أمير المومنين يعقوب بن عبد الحق المذكور فى وفد أهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء ، وهو رحمه الله بمدينة رباط الفتح ، وذالك فى شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وثمانين وستمئة برسم السلام عليه والوداع له حين قدم من حضرة مراكش يريد الجواز الى الأندلس برسم الجهاد ، فجرا فى مجلسه رحمه الله ذكر والده الأمير عبد الحق قدس الله روحه فقال أمير المسلمين ولده يعقوب : كان والله عبدُ الحق صادقَ اللهجة كريمَ الفعال ، إذا قال فعل ، وإذا عاهد وفا ، لم يحلِفْ قط بالله تعالا براً ولا حانثاً ، ولم يشرب قط مُسكراً ولا ارتكب فاحشة فى شبابه ولا فى كِبَره ، ببركة سراويله يسهُل الوضعُ على الحوامل ، وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بصالح أو عالم قصده لزيارته ، ويستوهب منه الدعاء ، وكان من صدق يقينه وحسن ظنّه إذا دعا له صالح نصب برنُسَه لأخذ دعائه ، فاذا فرغ الرجل من الدعاء ضمَّ أطراف برنُسِه وجاء به إلى بيته فجمع أولاده ونفض عليهم البرنس وهو يقول : هاذا حظّكم من دعاء الصالحين ، وكان شديد المحبة فى العلماء والصلحاء ، خائفاً منهم ، متواضعاً لأهل العلم والدين ، وكان مع ذالك سُمّاً لأعدائه قاهراً لهم ، غالباً على من ناوأه ، وما وجدنا إلا بركته وبركةَ مَن دعا له من الصالحين .

قال المؤرخ لأيامهم :

وكان الأمير عبد الحق فى شبابه قليلَ الولد ، فنام ليلة بعد أن خرج من ورده ، وأكثر من شكر الله وحمده ، فرأا فى سِنَةِ نومه منامة ، كانت له ولعَقِبِه دليلَ الملك والامانة ، رأا فى منامه كأنَّ قبسَ نار خرج من قُبُلِه فعلا فى الهواء وارتفع ، ثم تفرق واتسع ، حتى احتوا على أقطار المغرب أجمع ،

واستوا على جهاته الأربع ، وأشرق نوره في نواحيه وسطع ، ثم انتبه فزعاً منها مذعورا ، فقصد إلى بعض الصالحين فقصّ عليه رؤياه فبشره بخيرها ، ثم شرع له في تعبيرها ، فقال له لا تخف منها فهي لك عزّ وتمكين ، وملك لك ولعقبك عن قريب يظهر ويستبين ، هاذه رؤيا جليلة ، يكون لك ولعقبك بها شرف وفضيلة ، دلّت على الملك والتعظيم ، والتأييد والتفخيم ، أبشر فانك تلد أولاداً ذكوراً يكون لهم عزّ وشرف مذكور ، وفخر وثناء منشور ، يملك المغرب منهم أربعة ، تكون الأمة على أيديهم مجتمعة ، يكون لهم التقديم والرياسة ، والظهور والسياسة ، فلا يزال الملك فيه وفي بنيه وأعقابه ، وبهم يستقرّ الملك في نصابه ، فكان الأمر كما قصّ عليه ، ولم يمت حتى رأا ما ذكر له ، قد صار له ملك مرين أجمع ، وتوارث الملك بعده بنوه الأربع .

قال : فأخذ الأمير عبد الحق رحمه الله بعد تعبير رؤياه في خطبة النساء والتزوج طلباً للولد ، ورجاء أن يترك من ظهره مَن يذكر الواحد الصمد ، فتزوج أربعاً من النساء ، فتولد له منهن أولاده المذكورون ، فكَبِر معه بنوه فزاد بهم في قومه عزة ومكانة ومهابة لحيائه وصيانته .

ولم يزل الأمير عبد الحق بعد هزيمته لأبي علي بن وانودين ومَن كان معه من الموحدين ينتقل بجيوش بني مرين في أطراف المغرب إلى أن دخل شهر ذي حجة سنة ثلاث عشرة وستمئة المذكورة آنفاً ، فزحف بمَن معه من أنجاد مرين إلى أن نزلوا بالقرب من رباط تازة وبعث إلى عاملها يطلب منه أن يُقيم له الاقليم والأسواق بخارجها ليتجهّز منها بنو مرين مما يحتاجون إليه من الثياب والجهاز والسلاح وغير ذالك ويرتحلون عنه ، فأنف من ذالك عامل الرباط ، واغتاظ واستشاط ، وجمع مَن كان عنده من الموحدين والعرب وحشد القبائل المجاورين له ، وخرج لحربه ، فالتقا الجمعان فكانت بينهما حروب شديدة ، قُتل فيها عامل الرباط وهُزم جيشه ونُهب عسكره بأمر الأمير عبد الحق فجمع السلب والخيل والعدة وأحضر ذالك كله بين يديه ، فأعطا الخيل لمَن لم يكن له فرس من قومه ، وقسم المال والسلب والسلاح في قبائل مرين ، ولم يتملك بشيء منه ، وقال لبنيه أردتم أن تأخذوا من

هاذه الغنيمة شيئاً ؟ فيكفيكم فى حظكم الثناء والظهور على أعدائكم فبذالك تسودون قومكم .

وفى سنة أربع عشرة وستمئة وقع الخلاف بين قبائل مرين كلها إلى عبد الحق إلا طائفة من بنى عسكر فانهم ساروا إلى رياح ودخلوا عليهم دخيلا أن ينصروهم على حرب بنى مرين ، فوعدوهم بذالك ، وكانت عرب رياح فى ذالك الزمان أقوا قبائل العرب وأعزها جناباً وأشجعها وأكثرها أموالا وخيلا ورجالا ، فاغتروا بكثرتهم ، واعتمدوا على قوتهم وشجاعتهم ، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما كان شهر جمادا الآخرة من السنة المذكورة أقبلت عرب رياح ومَن سار إليهم من بنى عسكر مسرعين إلى قتال بنى مرين . فسمعت مرين باقبالهم وكثرة عددهم وقوة جيشهم ، فأخذوا فى التأهب للقائهم وقتالهم ، فاجتمعوا إلى الأمير عبد الحق فقالوا له : أنت أميرنا ورئيسنا وشيخنا وبركتنا فما ترا لنا فى هاؤلاء العرب المقبلين إلينا لحربنا ؟ فقال لهم : يامعشر مرين إذا كنتم بالسوية والاعتدال وأعطا كل شيخ من أشياخ مرين على قدر منزلته وقومه وما يستحقه إذا كنتم فى أمركم مجتمعين ، وفى أحوالكم متفقين غير مختلفين ولا متنازعين ، وكنتم جميعاً فى حرب عدوكم أعواناً ، وفى ذات الله إخوانا ، فلا أخشا أن ألقا بكم جميعَ أهل الغرب ، وان اختلفتْ أهواؤكم وأقوالكم ، وتشتت آراؤكم ، ظفر بكم أعداؤكم ، وظهر عليكم حسادكم وقصادكم ، فقالوا له : أيها الأمير إنا نجدد لك البيعة على السمع والطاعة لك وعلى أن لا نختلف عليك فى قول ولا فعل ولا نفر عنك ولا نسلمك أو نموت عن آخرنا دونك ، فانهض بنا إلى لقائهم ، وتقدم أمامنا إلى قتالهم ، فسُرَّ الأمير عبد الحق بقولهم ، وشكرهم ودعا لهم ، وقال : أما الآن فباسم الله نسير إليهم على بركة الله ، فسار بمَن معه من جيوش بنى مرين حتى التقا الجمعان بموضع يعرف بواجرهان ، بمقربة من وادى سبو على أميال من قرية تافرطاست ، فكانت بينهم حروب عظيمة لم يشهد مثلها قتل فيها الأمير عبد الحق وولده إدريس فغضبت بنو مرين وقامت وقعدت لقتل أميرها وأنفت لمصاب رئيسها وكبيرها ، وأقسم بنوه وجماعة من أشياخ مرين ، منهم حمامة بن يزتن العسكرى والأمير ابن

محيو وغيرهم بالأيـْمان المغلظة الا يدفنوهما حتى يأخذوا بثأرهما ، فزحفوا نحو رياح كالأسود العادية ، والسيول الطامية ، فحملوا على رياح حملة الأسد على الثعالب ، وانقضوا فى جيوشهم انقضاض البُزاة فى اليعاقب ، وصبروا للقتال صبراً جميلا ، ورأوا ألا محيد عن الموت فى حروبهم ولا تحويلا ، فاشتدّ الحرب بينهم والكفاح ، وكثر القتلا فى الفريقين والجراح ، وتفللت السيوف وتقصفت الرماح ، فنصرت بنو مرين وهزمت رياح ، وقتل مرين منهم خلفاً عديداً ، وفرّ مَن بقِي منهم مهزوماً خائفاً شريداً ، واحتوت مرين على جميع ما كان فى حللهم من الأموال والخيل والعدد والثياب والابل والدواب .

وقام بأمرهم بعد موت أميرهم عبد الحق ولده عثمان ، وكان موت الأمير عبد الحق فى المعترك يوم الأحد الثانى والعشرين لجمادا الآخرة من سنة أربع عشرة وستمئة المذكورة ، ودفن عشيٌّ يوم الاثنين الثانى ليوم وفاته بظاهر قرية تافرطاست ، فقبره هنالك معروف بمسجد وزاوية يطعم فيها أبناء السبيل على الدوام .

الباب الثالث

فى ذكر الأمير عثمان بن عبد الحق رحمه الله تعالا

قال صاحب التاريخ رحمه الله :

هو الأمير أبو سعيد عثمان بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزرير بن فجوس بن جرماط بن مرين الزناتى المرينى .

أمه النوار بنت تاصليت الونجاسنى .

مولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة .

ولما هُزمت رياح وفرغ بنو مرين من قتالهم ، ورجعوا من اتّباعهم اجتمعوا إلى الأمير عثمان بن عبد الحق فعزّوه فى أبيه وأخيه ، وبايعوه على طوع منهم وتنويه ، فلما بويع وتمت بيعته أخذ فى غسل أبيه وتكفينه ودفنه ، وقلبُه يلتهبُ بالأسا من حزنه ، فلما فرغ من جهاز أبيه وشأنه ، وقف بين قومه وإخوانه ، فأمر بجمع السلب والأموال ، فجمعت بين يديه فقسمها فى قبائل مرين بالسوية والاعتدال ، وأعطا كلَّ شيخ من أشياخ مرين على قدر منزلته وقومه وما يستحقه حتى رضِيِ الجميع .

ثم سار إلى غزو رياح وتبعهم وأقسم ألا يكفَّ عنهم حتى يقتل منهم بأبيه وأخيه مئة شيخ من أشرافهم ، فقتل منهم خلقاً عديداً ، وأذاقهم وبالا شديداً ، فلما رأت عربُ رياح ما نالها منه من القتل والسبْي والغارات أذعنوا له بالطاعة ، وبعثوا له الصلحاء بالتذلل والضراعة ، فكفَّ عنهم على مال جليل يؤدونه له فى كل سنة فهم على ذالك يؤدون تلك الضريبة حتى الآن .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمئة ، وفيها ضعف ملك الموحدين ، وتبين فيه الوهن والنقص أي تبيين ، فصارت ملوكهم ليس لهم حكم فى البوادى إنما لهم أمرهم وسلطانهم فى المدن خاصة .

وفى سنة ست عشرة وستمئة كثرت الفتن بين قبائل المغرب واشتد الخوف فى الطرقات ونبذ أكثر القبائل الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وقالوا لا سمع ولا طاعة ، فأكل القويُ الضعيف ، واستوا الدنيء والشريف ، فكان كل من قدر على شيء صنعه ، ومن أراد منكراً أظهره وابتدعه ، إذ ليس لهم مليك يحوطهم ، ولا أمير يكفهم ويصدهم ، فكانت قبائل فازاز من جاناتة وقبائل غمارة وأوربة وصنهاجة والعرب يقطعون الطرقات ويغيرون على القرا والمجاشر مع الأحيان والساعات ، فانقطع الحرث واشتد الغلاء فى البلاد ، بسبب ذالك الاهمال والفساد ، فلما رأا الأمير عثمان بن عبد الحق ملوك الموحدين قد أهملوا دولتهم ، وسيَّبوا رعيتهم وضيعوا حرمتهم ، واعتكفوا فى قصورهم ، واحتجبوا عن مُهمات أمورهم ، وأنهم قد اشتغلوا بالخمور والغواني ، وتلذذوا باللهو وسمع الأغاني ، رأا أن ضلالهم قد تبين ، وجورهم قد زاد وتحكم وغزوهم على مَن له قوة واجب تعيَّن ، وأن خلعهم من أوجب الواجب ، لعجزهم عن القيام فيما تقلدوه من أمر الأمة بالحق الواجب ، فجمع أشياخ بنى مرين ، وندبهم إلى القيام بأمر الدنيا والدين ، والنظر فى صلاح المسلمين ، فوجدهم فى ذالك راغبين ، فأجابوا لما ندبهم اليه مسرعين ، فأمرهم بالتأهب لذالك ثم دعا براية فعقدها وقربها بين يديه وخرج من حلته على بركة الله تعالا ، فسار يشقُ بلاد المغرب بجيوش مرين الوافرة ، وقبائلهم المشهورة المظفرة ، فمر على جميع قبائله وأوديته وجباله ومعاقله ، فمَن سارع إلى بيعته وطاعته أمَّنه ووضع عنه الخراج وأقره ببلده وماله آمناً منيعاً ، ومن حاد عن طاعته ونابذه أباده نهباً وقتلا وغادره صريعاً ، فكان أول مَن بايعه من قبائل المغرب ودخل فى طاعته هوارة ثم تسول ثم مكناسة ثم بطوية ومطلاسة وكزناية وبنو يرتيان وغياثة ومجاصة وصاريوة وبنو مكود ، وبنو سيتان ، وبنو يازغة ، وبنو واسليت ، وبنو بحر ، وبنو يوسف ، ثم عطف الى بلاد بنى كانون ففتحها وفتح جبال زرهون وبلاد أوربة ، وصنهاجة ، وفشتالة ، وسدراتة ، ولمطة ، وبنى واريتين وكثير من بلاد غمارة ، فوضع على كل قبيلة مالا وزرعاً معلوماً يؤدونه فى كل سنة خفارة على بلادهم وأخرج عليهم الحُفَّاظ ، وصالحَ أشياخَ مدينة فاس ومكناسة

ورباط تازة وقصر كتامة على أموال معلومة يؤدونها له في كل سنة خفارة على بلادهم على أن يؤمِّن لهم الطرقات ، ويكفَّ عنهم الغارات ، ويدفع عنهم أذا مَن كان يؤذيهم من القبائل المجاورين لهم .

وفي سنة عشرين وستمئة غزا الأمير عثمان بن عبد الحق بلاد فازاز ومن بها من قبائل جاناتة ، فأثخن فيهم وأذعن له منهم بالطاعة قبائل كثيرة ، منهم مكلاتة وغيرهم ،وارتدعوا عن الفساد في الأرض وكفوا عاديتهم عن الناس.

وفي سنة إحدا وعشرين وستمئة غزا مَن بفحص أزغار من قبائل العرب والبربر الذين كانوا يقطعون الطرقات ويأكلون الرفاق فأبادهم وخلت البلاد منهم .

وفي سنة خمس وعشرين وستمئة قوي أمره بالمغرب ، فطاع له جميع قبائله وملك جميع بواديه من وادى ملوية الى رباط الفتح ، وفي أيامه كانت المجاعة والوباء الشديد والخوف والفتن فخلا أكثرُ بلاد المغرب .

الخبر عن سيرته وأحواله رحمه الله تعالا

كان الأمير عثمان بن عبد الحق شديد الحزم قويُّ العزم ذا نجدة وزعامه ، وقوة وعزامة ، له رأي سديد ، وعضد شديد ، وكرم وإيثار ، وحماية للذمار ، وحفظ للجوار ، وحياء ودين ، وصدق ووفاء ، وصحة مذهب ويقين ، وكان مع ذالك مُعظّماً للعلماء موقّراً للصالحين ، يتواضع بين أيديهم ويخضع، ويستوهب منهم الدعاء ويخشع ، كثير الصوم والصلاة والصدقة ، مستمراً في أحواله على أحسن طريقة ، سلك نهج أبيه وسيره وشيمه وطريقه ، فلم يزل على السنن القويم ، والهدْي المستقيم ، حتى أتاه اليقين ، فاغتاله ليلا علجٌ كان له رباه صغيراً ، فضربه غدراً بحربة في نحره ، فمات منها من حينه ، وذالك بوادى ردات ، في سنة ثمان وثلاثين وستمئة ، وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة ، فكانت أيامه وإمارته على قبائل مرين وبوادى المغرب أربعا

وعشرين سنة وسبعة أشهر من يوم وفاة والده وبيعة بني مرين إياه رحمه الله تعالى .

ذكر الخبر عن الأحداث التى كانت من أول المئة السابعة

سنة ستمئة

قال المؤلف رحمه الله :

أول حدث حدث بالمغرب فى أول عام ستمئة قيام العُبيدى بجبال ورغة من أحواز مدينة فاس ، وادعا أنه الفاطمي المهدى الذى ينصر الاسلام ويملأ الأرض عدلا كما مُلِئت جوراً ، فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه وجميع جبال غمارة ، فظُفِر به فقُتل وحُمل رأسه إلى الناصر ، فأمر أن يرد إلى مدينة فاس ويُعلَّق رأسه على بابها ولا يزال أبداً ، فعُلِّق رأسه على باب الشريعة من أبوابها وأحرق جسده فى وسط الباب المذكور بعد أن صلب عليه خمسة عشر يوماً ، وكان حرقُه فى اليوم الذى تمّ فيه سور المدينة المذكورة بالتجديد والبناء والاصلاح ، وتم الباب المذكور بالبناء وركبت مصارعه فسُمي به باب المحروق لأجل حرق العبيدي فى وسطه يوم تمامه ، وكان العبيدى رجلا صالحاً متخشعاً كثير الورع والعبادة .

وفيها تُوفي الفقيه العالم الزاهد الورع علي بن أحمد بن يحيا الأسدى المعروف بالجيانى نزل مدينة فاس ودرّس بها ، ثم رحل إلى المشرق برسم أداء فريضة الحج ، وسمع ابن عساكر ، ودخل العراق والشام ، وجعل على نفسه أن يؤذن فى منار كلّ بلد يدخله وأن يروي حديثاً أو حديثين عن الشيخ الذى يلقاه فيه ، وربما قيد له بخطه فاجتمع له أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة ، وقال رحمه الله أنشدنى حمّاد بن هبة الله الحرابى لنفسه فى سبع وتسعين وخمسمئة :

قالوا نراك كثير السير مجتهـداً في الأرض تنزلها طوراً وترتحـل
فقلت لو لم تكن في السير فائـدة ما كانت الشمس في الأبراج تنتقل

وقال أيضاً أنشدني ابن عساكر سنة ست وتسعين وخمسمئة في هاذا المعنـا :

قالوا : ترحلت عن دار نشأت بهـا وليس للمرء إلا داره شـرف
قلت : انظروا الدر في التيجان موضعه لما تفتح عن مكنونـه الصـدف

وفي أول محرم منها تُوفي الفقيه الحافظ عبد الله بن طاهر بن عبد الله بن هشام بن ملك بن فهر الأزدي الوادي آشي ، سكن مراكش واستوطن مدينة فاس ثم رحل منها إلى المشرق فحج وسمع بدمشق من أبـي طاهـر الخشوعي مقامات الحريري ، وسمع أبا القاسم بن عساكر ، وأبا القاسم أحمد بن ملك البغدادي وجماعة .

سنة إحدا وستمئة

وفي سنة إحدا وستمئة بنا يعيش عامل أمير المومنين النـاصر الموحدي على بلاد الريف سور مدينة بادس وسور المزمة وسور مليلة خوفاً عليهم من فجأة العدو النصراني .

وفيها تُوفي الفقيه الحاسب عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين من أهل فاس ، بربري الأصل من بني حجاج أهل قلعة فندلاوة ، أخذ عن أبي عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وشارك في غير ذالـك ، وكان أحد خدام المنصور ثم ولده الناصر ، وله أرجوزة في الجبر ، قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية سنة سبع وثمانين وخمسمئة ، وتُوفي رحمـه الله ذبيحاً بمراكش سنة إحدا وستمئة المذكورة .

وممن تُوفي من الفضلاء في سنة إحدا وستمئة أبو العباس السبتي : أحمد بن جعفر الخزرجي شيخ المريدين الآخذ بمذهب غريب في الديـن ، مولده بسبتة عام أربعة وعشرين وخمسمئة ، ونزل مراكش فاستوطنها وبها

توفي يوم الاثنين السادس من شهر جمادا الأخيرة من سنة إحدا وستمئة المذكورة ودفن بباب تاغزوت ، وشيخه أبو عبد الله الفخار صاحب عياض بن عياض اليحصبى ، وكان مذهبه رحمه الله أن لا يترك لنفسه ناضاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله فى يومه وباقيه يتصدق به ، وكان يرا أن أهل الجمال من النساء الفقيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن بشيء حتى يستغني الملاح ، وكان يرا أن الرجل إذا اعتل في جسده عضو من أعضائه يتصدق بدية العضو ويبرأ ، وكان حافظاً لكتاب الله تعالا يتلوه بالليل والنهار قد اتخذ القرآن نجياً ، وله كرامات كثيرة .

سنة اثنتين وستمئة

وفى سنة اثنتين وستمئة ولي الحفصيون بلاد افريقية وعمالتها للناصر الموحدى بعد أن فتح المهدية وأخرج عنها الحاج الكافى عامل ابن غانية عليها .

وفيها توفي الفقيه عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم اللخمى المعروف بابن الدباغ من أهل مرسية ، جاز إلى العدوة فسكن مدينة فاس وأقرأ بها ، ثم انتقل إلى تلمسان فاستوطنها وبها توفي سنة اثنتين وستمئة ، وقد نيف على الستين سنة ، روا عن أبيه الحافظ يوسف ، وعن جده لأمه محمد بن وضاح القيسى ، وأبى بكر بن العربى ، فكان رحمه الله هو وأبوه من أئمة المحدثين وحفاظهم المتقدمين فى الضبط والاتقان .

وممن توفي سنة اثنتين وستمئة الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن المجاهد نفع الله به ، توفي باشبيلية فى شهر صفر سنة اثنتين وستمئة المذكورة .

سنة ثلاث وستمئة

وفى سنة ثلاث وستمئة رجع الناصر من إفريقية إلى مراكش .

وفيها ولد الأمير أبو بكر بن عبد الحق .

وممَّن تُوفي فى سنة ثلاثة وستمئة الفقيه الفاضل الزاهد موسا بن عمران المرتالى ، كان له تقنوا ومعرفة بتفسير القرآن وحفظه وروايته وناسخه ومنسوخه ، وكان راوياً لحديث رسول الله (ص) عالماً بأصول الدين وله ديوان شعر فى الزهد ، فمنه قوله :

قنعت من الدنيا بقوت مبلغ ... فلست أبالى ما أخلّف من خلفى
إذا كنت لا أدرى أآُمهَل ساعة ... كفاني ما يكفى ودون الذى يكفى

وله رحمه الله يخاطب نفسه :

تحفظ بدينك لا تبتذله ... ولا تلف عرضك عرضاً كليماً
فأنت ابن عمران موسا المُسَمَّا ... ولست ابن عمران موسا الكليما

تُوفي رحمه الله بمدينة فاس ، ودفن بخارج باب الفتوح فى الموفى عشرين لشهر صفر عام ثلاثة وستمئة .

وفيها تُوفي الفقيه الحافظ المشاور عبد الرحيم بن عيسا بن يوسف بن عيسا بن قاسم الملجوم بن محمد ابن فنتروش بن مصعب بن عمير بن خالد بن هرثمة بن يزيد بن الملهب بن أبى صفرة الأزدى الزهرانى المهلَّبى من أهل فاس وجلة أعيانها يعرف بابن الملجوم لُقّب بذالك للكنة كانت بلسانه، يكنا أبا زيد ، وأبا القاسم ، كان رحمه الله من أهل العلم والدين والفضل ، روا عن الفقيه القاضى عيسا بن يوسف ، وعن عبد الله بن علي سبط الحافظ أبى عمر بن عبد البر ، استجازه والده ، وعن جعفر حفيد الأعلم أجازه أيضاً ، وعن الفقيه المحدث علي بن أحمد بن عبد الرحمان الزهرى ، والقاضى عياض بن موسا ، وحسن بن علي بن سهل الخشنى ، والفقيه أبى بكر بن زيدان والفقيه الحافظ أبى مروان بن مسرة ، وابن بشكوال الفقيه بقرطبة فى رحلته اليها ، ودخل الأندلس مراراً لطلب العلم والجهاد ، ولقي باشبيلية وقرطبة جماعة من الفقهاء والمحدثين وأهل اللغة ، ولقي بالعدوة كذالك ، وكان رحمه الله ضابطاً لما رواه من بيت علم ودين وشرف وفضل وحسب ، مولده فى صفر من سنة أربع وعشرين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله فى ذى القعدة سنة ثلاث

وستمئة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، روا عن الغافقي وابن فرتون وجماعة ، وحدث بفاس ، وجلس للتريس بها والرواية ، فأخذ عنه الناس واستجازوه من أقصا البلاد رغبة في علو روايته وضبطه .

سنة أربع وستمئة

وفي سنة أربع وستمئة جدد سور مدينة وجدة .

وفيها أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بازاء جامع الأندلس بمدينة فاس وبها توفي ، وفيها فُتح الباب الكبير المدرج الجوفي بصحن الجامع المذكور ، وفيها بُني مُصَلاَّ القرويين القديمة .

وممَّن تُوفي من العلماء والفضلاء في سنة أربع وستمئة الفقيه الحافظ المحدث أبو ذر مصعب بن أبي بكر بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني الأستاذ المحدث المقرى النحوى الجليل القدر ، أصله من جيان ، روا عن أبيه وعن أبي بكر بن عبد الله بن طاهر ، وتجول بالعدوة والأندلس وطلب العلم واعتنا به وقيد ، روا بفاس عن ابن حنين وابن الرمانة وأبي العباس المخزومي ، وروا بقرطبة عن ابن بشكوال وعبد الله بن عمر بن هشام الحضرمي وأخذ ببجاية عن عبد الحق الأزدي الاشبيلي ، وكتب إليه الامام الحاوظ أبو الطاهر السلفي ، وأبو محمد الديباجي ، وكان رحمه الله أحد الأئمة المتقدمين ضبطاً وتقييداً وأحد المعتمد عليهم في علم اللغة والآداب ، اماماً في العربية ، عالماً بكتاب سيبويه ، ذا سمت ووقار وفضل ودين وورع كثير الحياء قليل التصرف للدنيا ، لا يخرج من منزله إلا لاقرائه والصلاة إذا حضرت ، أقرأ ببلده جيان وببجاية وإشبيلية وفاس ، وبها استقر الى أن تُوفي بها ضحا يوم الاثنين الحادى عشر لشوال من سنة أربع وستمئة المذكورة ، ودفن بخارج باب الفتوح ، وولي قضَاء جيان أيام المنصور ، ولم يكن في وقته أتم وقاراً ولا أحسن سمتاً وعقلا منه رحمه الله ولا أضبط ولا أتقن تقييداً منه في جميع علومه حفظاً وعلماً وكان نقاداً للشعر ، عالماً به ، مطلق العنان في معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها متقدماً في ذالك كله وفي اقراء كتاب سيبويه ومعرفة أغراضه وغوامضه .

ولقد سئل الفقيه الحافظ الجليل أبو عبد الله الصدفي الفاسي أيهما أعرف بكتاب سيبويه ابن خروف أم أبو ذر ؟ فقال لم يكن أبو ذر يقصر في معرفة الكتاب عن ابن خروف ولا غيره مع اتساعه في اللغات والآداب والحديث والفقه وغير ذالك وإمامته في الضبط إلا أنه كان نشدة وقاره فلم يكن يلح عليه في سؤاله ولا مباحثته ولا يقدم عليه مع أنه كان يستوفى به الغاية ويبلغ ما يمكن من الاعتراضات والانفصال عنها ، فكنا نخاف أن يشقّ عليه القول بعد ذالك الاستيفاء ، وكان ابن خروف شديد الانبساط للطالب غير مهيب فكنا نسأله فاعتمدت عليه في الكتاب وفي الآداب واللغات والحديث والرواية عن أبي ذر إذ لم يكن ابن خروف يجاريه في ذالك .

وحدث الفقيه أبو عبد الله ابن الشيخ أبي الحسن ابن كسبة امام الموثقين في زمانه وكان قد قرأ على أبي ذر في كتاب سيبويه مثل شيخه أبي بكر بن طاهر إلا أن ابن طاهر كان ينصه ، وكان الامام الحافظ أبو عبد الله بن يوسف المزدغي يقدمه في علم العربية وفي علم الحديث وكان يقول كتابان لا يحسن أحد أن يمسكها في يده مع أبي ذر ، وهما مسلم والسّيَر يعني في التقييد والضبط ، وكان مع ذالك راوياً لكتب كثيرة في فنون شتّا من العلم ، وله املاء حسن على كتاب السير ، وله شعر رائق في فنون شتّا ، فمن ذالك قوله :

طال ليلي بالناصرية لما	أرق العين فيه طيف ألمّا
خطرت ذكرة على القلب منه	مثّلته للحظ عيني وعُما
لبس الليل كاتماً لسُراه	خوفَ واش وكاشح أن ينمّا
عطر الجوّ عرفه وشذاه	وأضاء الدجا فما اسطاع كتما
حبّ ذاك الخيالُ من أم عمر	لو أزال الخيالُ عنيّ همّا
ذكرتني معاهدا للتصابي	وروسوماً بقين في القلب رسما
كم لزمنا السرور فيها اغتباقاً	ولثمنا ثغرَ الأمانيّ لثما
وجررنا بها الذيول اختيالا	واجتنينا البذور تمّاً فتمّا
حين سلْما تبيت بالهجر حرباً	ثم تضحى بوصلها لك سلما
آه مما جنته أيدى الليالي	فرقتْ شملنا وقد كان ضمّا

كنت أُدعى أخاً لبعض الغواني ... وتولا الصبا وقد صرت عمّا
عاوض الدهرُ من صباك وقاراً ... ومن الجهل والغواية حلما
فلتدعْ ذكرَ زينبٍ وسعادِ ... إنّ ذكرَ الالاهِ أقربُ رحما
كم تشكيتُ من سهام جفونٍ ... وقسيُّ المنون أنفذُ سهما
وتألمت من لهيب اشتياق ... ولهيبُ الجحيم لا شك أصما
وتنعّمتُ باسم أسماءَ دهرا ... واسمُ ربٍّ العباد أعلا وأسما
رُبَّ دمعٍ أجريتُه خوفَ صدٍّ ... وبكاءُ الذنوب كان أهمّا
وقواف نظمتهُنَّ اغترارا ... منك أودعتُهنَّ حمداً وذما
رَبِّ إن الذنوبَ قد أثقلتْني ... فاعفُ عنّي فقد تحمّلت جرما
لست أرجو سواك ربّاً رحيماً ... تغفر الذنب لى وإن كان جمّا

سنة خمس وستمئة

وفى سنة خمس وستمئة ولد الأمير أبو عياد بن عبد الحق ، وفيها تزلزلت مدينة تونس سبع مرات فى يوم واحد حتى تهدمت المبانى العالية .

وفيها تُوفي الفقيه الحافظ علي بن حسين الصدفى الفاسى الدار ، كان من أهل المعرفة بالفقه والحديث والنحو والآداب أخذ عن الحسن بن طاهر وغيره ، وولاه المنصور قضاء غرناطة ، ثم تأخر عن قضائها فى أيام المنصور فتُوفي بفاس .

وفيها توفي الفقيه المبارك الصالح علي بن محمد بن خيار البلنسى ، سكن مدينة فاس وبها تُوفي فى شهر رمضان من السنة المذكورة ، سمع من أبى عبد الله بن الرمامة ولازمه كثيراً وتفقه عليه وسمع أبا الحسن بن حنين ، وسمع أبا القاسم بن بشكوال وأخذ عن أبى بكر بن خير صحيح مسلم وسمع أبا محمد بن عبيد الله بسبتة ولقي بمراكش أبا عبد الله بن الفخار ، وبتلمسان أبا الحسن بن أبى كَنون ، وكان فقيهاً مشاوراً تاركاً للتقليد مائلا إلى النظر والاجتهاد مشاركاً فى فنون من العربية والأصول وعلم الكلام والتصوف ، وهو القائل هاذيْن البيتيْن :

نجدد نسياناً كذا كل هـالـــك ونأمن أحياناً ولـم يأتنـا أمـــن
فانا ولا كفـــرانَ لله ربنـــــــا لكالبُدن لا تدرى متى يومهـا يدنو

وممَّن تُوفي من العلماء فى سنة خمس وستمئة الفقيـه الحافظ المحدث العالم المجتهد عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن عيسا بن يوسف بن قاسم الملجوم من أعيان فاس وفضلائها ويشهر فى بيته بنى ملجوم بابن رقية ، وكان له مال جليل ورباع عظيمة كانت غلته فى كل شهر من رباعه ثلاثة آلاف دينار ، وكان يتصدق فى كل يوم بخمسين درهماً ، روا عن عمه الفقيه عيسا والد عبد الرحيم ، وعن الفقيه أبى مروان ابن مسرة من أهل فاس ، ورحل إلى الأندلس مرات لطلب العلم ومجاهداً ، حضر غزوةَ الأراك مع المنصور متطوعا ، ولقي جماعة من العلماء والمحدثين بالعدوة والأندلس ، وأخذ عنهم ، وكان له اعتناء بالتاريخ والأنساب ومعرفة بالشعر والنحو واللغة والآداب ، نظر فى كثير من العلوم واعتنا بها وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل المغرب ، وخزانة كتبه كانت مشهورة فى المغرب . بيعت خرمها بعد وفاته بستة آلاف دينار ، مولده سنة ست وثلاثين وخمسمئة ، وتُوفي رحمه الله سَحَر يوم الخميس سادس صفر عام خمس وستمئة .

وفيها تُوفي الامام الحافظ ، عالم المشرق ، الفخر ابن الخطيب الرازى صاحب علم المنطق ، واسمه محمد بن عمر بن الحسن بن أبى المعالى ، صنف كتاب التفسير فى ثلاثين مجلداً أتى فيه بكل بديع ، وصنف كتابَ المحصل ، والأربعين ، ونهاية العقول ، وغيرها ، وكان معتنياً بكتب ابن سينا فى المنطق وشرحها ، وكان يعظ الناس ببغداد وينال من الكرامية وينالون منه ويكفرهم ويكفرونه ، وقيل إنهم دسوا إليه مَن سقاه السُمَّ فمات فى ذى الحجة سنة ست وستمئة المذكورة ، ولا خلاف فى فضله ، وقد خالف الفلاسفة الذين أخذ هاذا الفن عنهم واقتبسه منهم ، فقال فى كتاب له سماه بالمعالم : أطبقت الفلاسفة على أن النفس جوهر وليست بجسم ، قال : وهاذا باطل عندى لأن الجوهر يمتنع أن يكون له قرب أو بعد من الأجسام ، واتفاقهم على أنها ليست داخلة فى البدن ولا خارجها عنه يدل على عدم الجسمية ، وما ادعوه أن للجوهر قرباً أو بعداً عن الأجسام ، وانما ادعوا ذالك فى ذات الجوهر لا فى غيره ، وليست النفس كذالك ولهذا توقفوا عن الجواب فى معنا الجوهر الفـرد ،

وقد حُكي عنه من الدين والفضل وكرم الأخلاق وحسن السيرة والعشرة واعتنائه بنصر الملة الاسلامية وتأييد السنة ما يُبطل قول الكرامية فيه .

سنة ست وستمئة

وفى سنة ست وستمئة ولد أمير المسلمين المجاهد يعقوب بن عبد الحق .

وفيها ولد الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبتة وقيل بل ولد فى سنة تسع وستمئة .

سنة سبع وستمئة

فيها تُوفي الفقيه الصالح سليمان بن مهدى بن النعمان من أهل مدينة فاس ، ويعرف بالسطى ، روا عن عبد الله بن الرمانة ، وأخذ علم الكلام عن أبى عَمْر عثمان بن محمد السلالجى وتُوفي وهو ابن سبعين سنة ، وكان رحمه الله كثيراً ما ينشد هاذه الأبيات وهي لسعيد بن عبد الرحمان بن وهب بن عبد ربه رحمه الله :

أمن بعد غَوْصى فى بحار الحقائق ... وطول انبساطى فى مواهب خالقـى
وفى حين إشرافى عـلى مَلَكوتـه ... أرا طالبـاً رزقـاً إلى غير رازقـى
وقد آذنت نفسى بتقويض رحلهـا ... وأسرع فى سوقى إلى الموت سائقى
وإنى وإن أوغلتُ أو سرتُ هاربـاً ... من الموت فى الآفاق فالموت لاحقى

سنة ثمان وستمئة

وفى سنة ثمان وستمئة جاز الناصر إلى الأندلس برسم الجهاد وجوَّز معه قبائلَ إفريقية والمغرب ، فيقال إن مَن جاز معه من الخيل والرجال ستمئة الف مقاتل ، فاغترَّ بكثرة مَن جاز معه من الجيوش وأدركه الاعجاب .

وفيها تُوفي الفقيه الشيخ الصالح الزاهد الورع محمد بن جرير المعروف بابن تاخميست من أهل فاس ، وبها مات ليلـة الثلاثاء السادس والعشرين لذى الحجة من سنة ثمان وستمئة المذكورة ، ودفن بخارج بـاب

الكيسة ، وكان رحمه الله ونفع به كثير الورع شديد الانقباض عن الناس ، وله خط حسن ، وكان ينسخ المصاحف بيده ويدفعها لمن يراه أهلا لها ، وكان مولعاً بدرس العلم وطلبه ، وهو القائل :

أخو العلم حيٌّ خالـد بعـد موتــه ... وأوصاله تحت التراب رميـــم
وذو الجهل ميتٌ وهو ماش على الثرا ... يُظَنّ من الأحيـاء وهو عديــم

وفيها تُوفي الشريف الصالح الورع الزاهد المعمر أبو العباس الحسنى الجوطى عن سن عالية رحمه الله ونفع به ، ودفن بخارج باب الكيسة قريباً من قبر الفقيه أبى محمد يشكر .

وفيها ولد محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وفيها كانت غزاة شربطره وفتحها ، وفيها كانت ملاقاة أمير المومنين الناصر مع ملك قشتيلة النصرانى بالعقاب فهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير لا يحصر ، وفيها فني جيوش المغرب والأندلس .

سنة تسع وستمئة

فيها تُوفي العالم المجتهد علي بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغسانى الوادى آشى ، مولده سنة سبع وأربعين وخمسمئة ، روا عن ابن طاهر وابن الفرس ، وكان فقيهاً أديباً مشاركاً فى فنون العلم ، وله تواليف ومجموعات مفيدة ، منها كتاب الوسيلة لاصابة المعنا ، فى شرح أسماء الله الحسنا ، وكتاب التصنيع ، فى تأصيل مسائل التفريع ، وكتاب اقتباس السراج ، فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، وكتاب نهج المسالك ، للتفقه فى مذهب مالك ، شرح فيه الموطأ فى عشرة أسفار .

وفيها تُوفي الفقيه النحوى القدوة علي بن محمد الحضرمى الاشبيلى المعروف بابن خروف ، أخذ عن أبى بكر بن صافى ، وأبى عبد الله بن المجاهد ، وأبى إسحاق بن ملكون ، وكان إماماً فى صناعة العربية مشاركاً فى علم الكلام وأصول الفقه ، وله شرح على كتاب سيبويه جليل الفائدة ، سماه تنقيح الألباب فى شرح غوامض الكتاب ، عول فيه على طرر ابن طاهر شيخه ، وله شرح آخر

على كتاب الجُمَل للزجاجى ، وله كتاب فى الفرائض ، وردٌ على أبى القاسم السهيلى وابن ملكون وابن مضا ، وعُنِي بالردّ على أبى المعالى الجوينى فى كثير من تواليفه ، تُوفي باشبيلية .

وفيها تُوفي الشيخ الشريف الفقيه القاضى العالم المتصوف المجاهد محمد بن طاهر الحسينى من وَلَدِ الحسين بن علي رضي الله عنه ، ومن أهل مدينة فاس ، وبها عَقِبُه إلى اليوم ، ويعرف بابن الصيقل ، روا عن ابن جبير وابن الرمانة ، وكان أوحد عصره فصاحة ومشاركة فى جميع العلوم الدينية والدنيوية ، عالماً بالأصليْن : أصول الدين وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف ، ولي قضاء الجماعة للمنصور ، وكان عادلا فاضلا ورعاً لم يُعرَفْ له فى أحكامه ميل ، ولا يقبل هدية من أحد من حين ولي القضاء إلى أن مات ، وكان قبل أن يلِي القضاءَ ينتحل طريقة الوعظ والتصوف والتدريس ، واتصل بالمنصور سنة سبع وثمانين وخمسمئة ، فحظِي عنده ، وكانت له عنده منزلة عظيمة ، نُقِل عنه أنه قال وصل إليّ من صلات أمير المومنين المنصور منذ عرفتُه إلى أن مات تسعة عشر ألف دون الخلع والمراكب والاقطاع ، ولـي قضـاء الجماعة ، ولم يزل قاضياً إلى أن مات باشبيلية بعد رجوعه من غزاة العقاب ، وكان أحد الأجواد الكرماء ، مدحه جماعة من الفقهاء والأدباء ، فمِمَّن مدحه من فقهاء الأندلس وأعلامها القاضى محمد بن نوح الغافقى قاضى بلنسية امتدحه بقصيدة أولها :

تخيرت فانهض فى رضا الله واصعد ... وحل على التوفيق ما شئت واعقد
حبانا فأحيانا بماضيٌ عزمه ... على الحق منصور عليه مؤيد
بأورع من آل الحسين خلاله ... متى تُتْلَ كانت من سناء وسؤدد
فلو لم تكن تلك الأرومة أصله ... أتتْه سجاياه بأفضل محتد
هو الفرع فى أعلا السماء مظللا ... قرارتُه بيت النبيٌ محمد
فيالك من فخريْن ذاتى وسالف ... إذا لم يكونا لامرىء لم يُمجَّد
مضا أمسه المحمود واليوم بعده ... كريمين لكن يقصران عن الغد
مآثر راقت فى سماع ومنظر ... تُرا أبداً منه تعود وتبتدى
رآه أمير المؤمنين ولم يكن ... لينظر إلا عن بصيرة مهتدى
فالقا إليه بالتى لا تؤوده ... وإن وجدت عبأ على كل أيّد

السنة العاشرة وستمئة

فيها توفي أمير المومنين الناصر الموحد بمراكش ، وولي الملك بعده ولده يوسف المستنصر ، وفيها دخل بنو مرين المغرب ، أقبلوا إليه من بلادهم في أمم كثيرة ، وفيها كان الوباء بالمغرب والأندلس ، وفيها ملك العدو النصراني مدينة أبدة من بلاد الأندلس عنوة بالسيف فلم ينجُ منها أحد من الرجال وسبا النساءَ والذريةَ ، وكان الحادث بها عظيماً .

السنة الحادية عشرة وستمئة

فيها ملك العدو دمره الله افراغه من بلاد شرق الأندلس صلحاً بعد الحصار الشديد حتى أكل أهلُها الجيف .

سنة اثنتي عشرة وستمئة

وفي سنة اثنتي عشرة وستمئة ملك العدو مدينة تطيلة من شرق الأندلس ، وفيها ضعف ملك الموحدين فلم يقدروا على مدافعة الروم ولا موافقتهم .

وفيها توفي الفقيه القاضي أحمد بن بنى قاضى الناصر ، وفيها توفي القاضي محمد بن مروان .

سنة ثلاث عشرة وستمئة

وفي سنة ثلاث عشرة وستمئة التقا عبد الحق وبنو مرين بجيش الموحدين ، وكانت بينهم حروب شديدة نصر فيها بنو مرين فهزموا الموحدين وقتل منهم خلق كثير بفحص الدار من أحواز رباط تازة وهو عام المشعلة .

وفي سنة ثلاث عشرة وستمئة المتقدم ذكرها توفي الشيخ موسا بن وكادير الدكالي (6) وقد نيّف على المئة سنة .

---

6) ظ ترجمته في التشوف ع 265 ص 460 .

وفيها توفي الشيخ الصالح الفاضل الحسين بن أحمد بن يوسف بن فتوح الأنصارى البلى المقرىء الضرير المعروف بابن زلال فى آخر المحرم منها .

وفيها فى آخر ربيع منها توفي الفقيه القاضى العالم الأديب عمر بن عبد الله بن عمر البلنسى باشبيلية .

سنة أربع عشرة وستمئة

وفى سنة أربع عشرة وستمئة هزم المسلمون بقصر أبى دانس من بلاد غرب الأندلس ، واستشهد فى هاذه الكائنة من المسلمين ما يزيد على ستة عشر ألفاً .

وفيها كانت الملاقاة بين بني مرين وعرب رياح فقتل الأمير عبد الحق بن محيو وولده إدريس ، وهزمت رياح واستأصلتها مرين بالسيف ،

وفيها بايع بنو مرين الأمير عثمان بن عبد الحق وقدموه على أنفسهم للقيام بأمرهم .

وفيها توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب صاحب مصر ، مولده سنة تسع وثلاثين وخمسمئة ، وكان ملكه من بلاد الكرخ إلى همدان والجزيرة والشام والحجاز ومصر واليمن إلى النوبة الى حضرموت ، وكان رحمه الله قائماً بملكه حسن التدبير والسياسة حليماً عادلا مجاهداً ديِّناً عفيفاً كثير الصدقات آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، طهَّر جميع بلاده من الفساد والخمور والخواطىء والمخنثين والقمار ، وأزال المكس والمظالم ، وكان الحاصل من هاذه الألقاب بدمشق خاصة مئة ألف دينار فى السنة ، فأزال ذالك كلّه ابتغاء وجه الله تعالا ، وكان رحمه الله إذا مرض أو توشوش عليه بلد من بلاده باع ثيابه وفرسه وتصدق به، ووليَ بعده ولده الملك المعظم .

وفيها توفي القاضى محمد بن نوح الغافقى قاضى بلنسية ، وكان من أهل الفضل والعلم والورع والمعرفة باللغة والآداب ، وله شعر رائق فى فنون شتّـا .

وفي سنة أربع عشرة وستمئة توفي المولا يحيا بن أبي بكر بن محمد بن مع الله يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان بمراكش ، ولما حضرته الوفاة مدّ يديه ورجليه وقرأ (إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) ثم تبسم وقال : أشهد أن لا إلاه إلا الله ، ومات رحمه الله .

وفيها توفي الفقيه الواعظ محمد بن أحمد اللخمي المعروف بابن اللجام ، كان حسن الموعظة دائم العبرة إذا تكلم أثر ، وهو القائل رحمه الله

غريب الوصف ذو علم غريب ... عليل القلب من حبّ الحبيب
إذا ما الليل أظلم قام يبكي ... ويشكو ما يكنّ من الوجيب
يقطع ليله ذكراً وفكراً ... وينطق فيه بالعجب العجيب
به من حب سيده غرام ... يجلّ عن التطبب والطبيب
ومن يك هاكذا عبداً محبّاً ... يطيب ترابه من غير طيب

سنة خمس عشرة وستمئة

وفي سنة خمس عشرة وستمئة دخل الفنش ملك قشتيلة قصر أبي دانس بالسيف .

وفيها توفي الفقيه المحدث الصالح الورع محمد ابن الفقيه الحافظ العالم المشاور يحيا ابن علي بن طويل بن أحمد بن طويل بن عبد الله بن محمد بن علي القيسي ، ويعرف بابن بيضاء ، نسب إلى جدته البيضاء بنت عمر بن إدريس الحسني ، وكان من أهل مدينة فاس ومن جلة أعيانها وأشرف بيتاتها ، من بيت علم وديانة ، وعفاف وصيانة ، يروى عن أبيه وعمه وجماعة من فقهاء فاس وغيرهم .

وفيها توفي الفقيه العالم المحدث يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن محمد بن تموى من أهل فاس يكنى أبا الحجاج ، الأصولي الجليل ، أخذ عن القاضي أبي جعفر ابن مضا وجماعة ببلده ، وأجازه ابن بشكوال وأجاز له عبد الحق الأزدي ، وقرأ علم الكلام وأصول الفقه على الأصولي الزاهد محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المعروف بابن الكتاني وصحبه إلى أن مات ، وقعد بالعدوة للاقراء ، فكان له صيت عظيم بالمغرب وبمراكش وبالأندلس ،

اقرأ باشبيلية ورجع الى فاس سنة ثلاثة عشر وستمئة ، وجلس للاقراء بعد عودته من الأندلس بشرق جامع الأندلس وبجامع القرويين إلى أن تُوفي فى الثانى عشر من رجب من سنة خمس عشرة المذكورة ، ومولده عام أربعة وخمسين وخمسمئة ، وكان من الفقهاء الأذكياء النبهاء مع سرعة الفهم والحفظ والتفنن فى العلوم ، أديباً عارفاً بالمغازى والسيَر ذاكراً للتاريخ وأيام الناس رحمه الله ونفع به .

وفى سنة خمس عشرة وستمئة توفي الشيخ الصالح عثمان بن منغفاد السجلماسى (7) وكان يواصل صومَ خمسة عشر يوماً وهو القائل :

طيبٌ بذكر الله فـاك لأنه	لأجلُّ ما فاهت به الأفواه
طفئت مصابيح العقول فكلنا	يُمْسى وَيُصبح فى ظلام هواه
كم مدعٍ علماً لو استخبرته	لوجدت أكثر علمه دعواه
ما للفتا لا يرعوى وصباحه	ومساؤه يعظانه بسواه
تلقاه تياهاً على مَن دونه	ولسوف يُعطشه الذى أرواه

وفى خامس من ربيع الأول منها تُوفي الشيخ الزاهد أبو العباس أحمد بن محمد اللخمى المعروف بالراس بمدينة الأسكندرية .

وفيها تُوفي خطيب القرويين وإمامه قاسم بن عمر القضاعى .

وفى تاسع وعشرين من ذى قعدة من السنة المذكورة وُلد الفقيه الصالح محمد بن يوسف بن محمد بن إبراهيم بن محمد الخزرجى المكناسى المعروف بابن الصباغ .

السنة السادسة عشرة وستمئة

فيها استولا التطار على مدينة بخارا من بلاد خراسان ، وهي كانت قُبّةَ الاسلام ومجمعَ الأنام ، ودخلت عنوة بالسيف ، فيقال إنه استشهد يوم دخولها أحد عشر الف مدرس مفت .

وفى أول يوم من المحرم منها شرع الملك المعظم ابن الملك العادل

7) ترجمته فى التشوف ع 269 ص 464 .

محمد بن أيوب بن سادى بن مروان صاحب الشام ومصر فى هدم سور بيت المقدس وتخريبه وإخلائه خوفاً عليه من الافرنج أن يملكوه ويقتلوا أهله ويحكموا منه على بلاد الاسلام فوقع فى البلد ضجة عظيمة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والصبيان إلى المسجد الأقصا والصخرة فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم حتى امتلأت الصخرة ومحارب الأقصا من شعورهم ، وخرج الناس هاربين من المدينة وتركوا أموالهم وما شكوا أن الافرنج تصفحهم . فامتلأت بهم الطرقات ، فصار بعضهم إلى مصر ، وبعضهم إلى دمشق ، وبعضهم إلى الكرد ، فكان النساء والبنات يمزقن ثيابهن ويلففن بهن أرجلهن من الحفا ، ومات من الناس خلق كثير من الجوع والعطش ونهبت أموالهم .

وفيها دخل الافرنج دمياط من بلاد مصر بعد الحصار الشديد حتى أكل أهلها الميتة فطلبوا الأمان فأمنوهم فلما فتحوا لهم الأبواب غدروا بهم فوضعوا بهم السيف قتلا وأسراً، وباتوا تلك الليلة يتفرحون بالنساء ويفضحون البنات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلا وبعثوا بها الى بلادهم وجعلوا الجامع كنيسة .

وفى رجب منها تُوفي الامام المالكى الكبير الشهير بالتصانيف البديعة عبد الله بن نجم بن شاس صاحب الجواهر الثمينة ، فى مذهب عالم المدينة ، تُوفي غازياً بثغر دمياط ، ولأبى بكر محمد بن جابر السقطى فى كتاب الجواهر .

أياطالباً تحصيل مذهب مالك ... ليسلم من تمويه أهل الظواهر
عليك بمجموع ابن شاس تجدْ به ... حقائق تبدو كالنجوم الزواهر
يزين نحور المالكيين سلكها ... فلله مَن سماه عقد الجواهر

السنة السابعة عشرة وستمئة

فيها ملك الأمير عثمان بن عبد الحق أكثر بوادى المغرب وأخرج عليها حفاظه .

وفيها ابتدأت المجاعة والغلاء والقحط وكثرت الفتن وعم الجـراد جميع بلاد المغرب والأندلس .

وفيها بني برج الذهب بوادى إشبيلية خوفاً من العدو لئلا يفجأهم من الوادى .

وفيها فتح البات بجامع القرويين من فاس ، وهو البـاب الذى فى وسط الوراقين ، وبنيت القبة المقربصة بالجبص أمامه .

وفيها تُوفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين أبى سعيد عمر بن نور الدين بن أيوب صاحب حماة .

وفيها غرس شجرة جزيرة سقطرة التى يجلب منها الصبِر السقطرى.

وفيها عبرت التطرنهر جيحان من بلاد عراق العجم ، فانتشروا فى بلاد الاسلام ودخلوا مدينة سمرقند فقتلوا جميع رجالها وسبوا النساء والذرية ثم صاروا إلى مدينة خوارزم وحصروها ، وكان الملك خوارزم شاه قد أخلا البلاد من جهته والجيوش ، فلم يجدوا من يصدُّهم ولا من يقف فى وجوههم ، فسار التطر حتى وصلوا الى مدينة الري وقزوين وهمدان فدخلوا ذالك كله بالسيف وقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها وسبَوا حرمها وأموالها ، ثم توجهوا إلى بلاد أذربيجان فدخلوها أيضاً بالسيف وفعلوا فيها فِعْلَهـم بهمـدان وغيرهـم .

وفيها تُوفي الفقيه الصالح الأستاذ المقرىء العارف المحقق يعيش بن علي بن مسعود بن يعيش بن القديم الأنصارى ثم الشلبى (8) عن الامام الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السفلى الأصبهانى فى ذى القعدة منها فدفن بباب الجيزيين من فاس .

وفيها تُوفي الشيخ الصالح الزاهد المبارك أبو عثمان الورياكـلى نفع الله به ، ودفن بخارج باب الفتوح من أبواب فاس .

---

8) وقع ولا شك خلط فى هذه الترجمة كما يدل على ذلك الاضطراب الحاصل فيها . تراجع ترجمة يعيش الشلبى فى **جذوة الاقتباس** ص 355 .

وفيها تُوفي الفقيه العالم الورع أحمد بن بكار القيسى قاضى فاس ومن أعيانها وبيتاتها .

السنة الثامنة عشرة وستمئة

فيها ولي موسا بن عبد الصمد على فاس ومكناسة والرباط ، وكان جواداً سائساً ، فصالح بنى مرين على أعماله بعشرة آلآف دينار فى السنة فصلح أمر بلاده .

وفيها جدد سور إشبيلية وبُني الحرمُ البرّانى وصنع حوله الحفير الدائر به على يد السيد أبى العلاء ابن يوسف ابن عبد المومن الذى بنا برج الذهب .

وفيها استرجعت مدينة دمياط من أيدى الروم نزل عليها لاستنقاذها ثلاثة مُلوك من ملوك الاسلام ، وهم الملك الكامل ، والأشرف ، والمعظم ، وقاتلوها حتى فتحوها صلحاً .

وفى غرة المحرم تُوفي عامل إفريقية عبد الواحد بن أبى حفص .
وفيه سيقت الزرافة إلى مراكش .

السنة التاسعة عشرة وستمئة

وفى السنة التاسعة عشرة وستمئة نزل النصارا على جزيرة ميورقة وذالك يوم الخميس الخامس عشر من ذى الحجة من السنة نزلوها بما يزيد على الثلاثمئة جفن .

وفى نصف رجب منها تُوفي الملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل والسلطان الفاضل سيف الدين أبى بكر بن أيوب .

سنة عشرين وستمئة

وفى سنة عشرين وستمئة تُوفي أمير المومنين يوسف المستنصر

بالله الموحد صاحب المغرب فقصده من حضرة مراكش ، وولي بعده عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن ، وهو المخلوع منهم ولي فى وفـاة المستنصر .

وفيها تُوفي الفقيه العالم الورع الفاضل علي بن حسن الصدينى من أهل فاس (9) كان فقيهاً حفاظاً للحديث عالماً بالأصلين (10) أعوام وأجلَّ المسلمين فى إخلاء البلد عشرين يوماً ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، فأخبرنى مَن شاهد هاذا الحصار أن الذُرّة كانت تُباع بها حَبّاً عشر أواق بدرهم ، والشعير ثمان أواق بدرهم ، ولم ينقطع فيها شراء الأملاك الأصول إلا قبل الحادث بيسير ، ولما أخذ المسلمون فى الخروج منها بيع الدقيق فيها أحد عشر رطلا بدرهم .

وفى يوم الجمعة السادس عشر من رمضان دخل الأمير أبو جميل ابن مَردنيش مرسية عن رضا من أهلها ، وخطب بها للأمير أبى زكرياء بن عبد الواحد بن أبى حفص ، وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثّلاثاء الموفّى عشرين لرمضان المذكور وانتظمت بلاد شرق الأندلس كلّها فى طاعة الأمير أبى زكرياء من شقر إلى يسن .

وفيها تُوفي الملك الكامل صاحب مصر والشام ، وهو محمد بن أبى بكر بن أيوب ، وهو أكبر أولاد العادل وولي بعده ولده الجواد .

وفيها بايع محمدُ بن يوسف بن نصر الرشيدَ وكان يخطب له على منابر طاعته ، ويكتُب اسمه فى كتبه وسكته ، فقنع منه بذالك وبقي عـلى هاذه الحالة إلى سنة أربعين حين توفي الرشيد .

---

9) تنظر ترجمته فى جلوة الاقتباس ص 298 .

10) ورد فى النسخة الخطية التونسية بعد كلمة الأصلين ما يلى : وهاهنا أيضاً فصحة (كذا) بين الكلام والكلام لفرط الكتب وطول الزمان ، ثم رجع للخبر هنا .

ويلاحظ أن المدة التى شملها هاذا البتر تبلغ 17 سنة لأن الكلام ينتقل من سنة 620 الى سنة 637 او التى قبلها .

وفيها ولاّ الرشيد' على سبتة أبا علي بن خلاص فكانت سيرته حسنة ، وكان ابن هود ولاّ بغرناطة عتبة بن يحيا المغيلي ، فكان يأمر الخطيب أن يذكر ابن الأحمر بالمساوىء ويسبه ، ونفا منها قطبها العالم العلم سهل بن مالك وأخرجه عنها إلى مرسية أولا فسجنه بها فأغلظ أمره بها أهل غرناطة ، فانتدب جماعة من أشرافها في نحو مئة رجل من أنجادها وأصبحوا إلى باب القصبة ، وذالك أول يوم من رمضان وسيوفهم مشهورة ، ودخلوا القصبة والقصر وفرّ عاملها البغيل من بني هود ، وقتل عتبة بن يحيا واليها ، وبعثوا إلى ابن الأحمر وبايعوه وخلعوا ابن هود ، وبعثوا بيعتهم في آخر رمضان المذكور ، فجاءهم ابن الأحمر ونزل بخارج غرناطة ودخلها غروب الشمس من يوم نزوله ، فدخل البلد والمؤذنون يؤذنون بالمغرب ، فنزل بجامع القصبة ، وكان إمامُ الجامع أبو المجد المرادى قد غاب تلك الليلة فدفع الأشياخ ابن الأحمر للمحراب فصلاّ بهم وهو على هياة سفره بشاية مضلعة أكتافها مقطعة فقرأ في الأولا بفاتحة الكتاب وإذا جاء نصر الله والفتح ، وفي الثانية بأم القرآن ، وقل هو الله أحد ، وهو بسيفه متقلد ، فلما فرغ من الصلاة خرج إلى قصر باديس والشمع يتقد' بين الأبواب فدخل في خاصته .

وفيها سار ابن' الأحمر إلى ألمرية برسم قتل ابن الرميمى القاتل لابن هود والقائم بها ، فسار حتى نزل عليه بالمدينة وحاصره بها مدة ، فلما اشتد بها الحصار على ابن الزميمى ركب البحر في مركب بأهله وعياله وأمواله ، وسار إلى تونس فأقام بها تحت كَنَفِ الأمير أبي يحيا وملك ابن' الأحمر ألمرية .

السنة السابعة والثلاثون وستمئة

فيها ملك العدو مدينة اللسينة صلحاً .

وفيها في نصف جمادا الأولا منها خرج زيان بن مردنيش من مرسية فاراً بنفسه إلى اللش لما استشعر الغدر من أهلها والميل إلى أبناء الدولة ابن هود فلما خرج منها ابن مردنيش أقبل إليها ابن هود فدخلها بمحاولة ابن عاصم صاحب الاريولة .

السنة الثامنة والثلاثون وستمئة

فيها قدم ملك التطر إلى مدينة ميافارقين وكتب إلى ملوك الاسلام يأمرهم بالدخول فى طاعته ، وكان عنوان الكتاب : من نائب ربّ السماوات ماسح وجه الأرض ، ملك المشرق والمغرب ، قاقان إلى ملوك الاسلام ، وبدأ بشهاب الدين ملك ميافارقين ، وقال له : إنى آمرك أن تهدّ أسوار مدينتك وجميع بلادك فقال له شهاب الدين : أنا من جملة الملوك وبلادى حقيرة بالنسبة إلى بلاد العراق وبلاد أرمينية والشام ومصر ، فما فعلوا فعلتُه ، وكان القادم بالكتاب شيخاً مسلماً لطيف الشمائل من أهل أصبهان حكا لشهاب الدين عجائب منها انه قال بالقرب من بلاد قاقان التطرى قريباً من بلاد ياجوج وماجوج على البحر المحيط أقوام ليس لهم رؤوس وأعينهم فى مناكبهم وأفواهُهم فى صدورهم ، وإذا رأوا الناس هربوا منهم ، وعيشُهم من السمك ، ومنها أن هنالك طائفة تزرع فى الأرض بذوراً فيولد منها غنم" كما تلد دود الحرير ولا يعيش الخروف منها أكثر من ثلاثة أشهر أو شهرين مثل بقاء النبات فى الأرض ، وهاذه الغنم فى التناسل ومنها عين من ماء يطلع منها كل سنة ست وثلاثون خشبة غلاظ عظام ، كل خشبة منها مثل المنارة العظيمة ، فتُقيم طولَ النهار فاذا غربت الشمس غاصت فى العين ، فلا تُرا إلا فى السنة القابلة فى مثل ذالك اليوم ، وقيل إن بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها فى يوم ظهورها فربطها بسلاسل وحلق عظام إلى أساطين حولها واستوثق منها ، فلما جاء وقت الغروب قُطعت السلاسل وغاصت فى العين فهي الآن تطلع والسلاسل فى وسطها .

وفيها لجأ الملك الصالح الجواد الى الملك الصالح صاحب مصر .

وفي أول محرم منها تُوفي الأمير عثمان بن عبد الحق أمير بنى مرين ، اغتاله علجُه ليلا بوادى ردات ، فولي مكانه إمارة بنى مرين أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق رحمهم الله وغفر لنا ولهم بمنّه .

الباب الرابع

فى ذكر الأمير أبى معرف محمد بن عبد الحق وسيره

هو الأمير أبو معرف محمد بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزرير الزناتى المرينى الحمامى ، أمه حرة إسمها النوار بنت تصليت الونجاسنى وهو شقيق عثمان .

لما تُوفي أخوه عثمان اجتمع أشياخُ مرين إلى أخيه محمد بن عبد الحق وبايعوه عن القيام بأمرهم والسمع والطاعة له على أن يحاربوا مَن حارب ويسالموا مَن سالم ، فاستقام له أمرهم وسار فيهم بسيرة أخيه واهتدا بهَدْيِه وفتح كثيراً من جبال المغرب وقلاعه المنيعة ، وكان بطلا شجاعاً شهماً كثير الغارات على أعدائه حسنَ السياسة والتدبير والمداراة ، ولم يفتر فى أيامه عن قتال ، ولم يزل طولها مرتكِباً للحروب والأهوال ، وكان مع ذالك عارفاً بمكائد الحروب وخدعها ، سائساً للرعية قاهراً لبِدعها ، صاحب حزم وحذر كما قال فى أرجوزته صاحب نظم الدرر :

ثم تولاّ بعده محمدْ — وكان فى أموره مُسددْ
وكان لا يفترُ عن قتال — مواظباً للحرب والنزال
كم عسكر لاقا وكم حشود — ومن جموع جمَّةِ الجنود
وكل جيش جاء من مراكش — أفناه بالحروب والتناوش
نهارهُ وليلهُ طعانُ — لكنَّه مؤيدٌ مُعانُ

وكان الأمير محمد بن عبد الحق مبارك الامارة ميمون النقيبة ذا عقل وفهم وصدق ووفاء وكرم عجيب ورأي سديد ، إذا وعد وفا ، وإذا قال فعل ، وإذا أعطا أغنا ، وإذا صال أفنا ، وإذا وجد الفرصة انتهزها ، وإذا رأا القوة حاد عنها ودار عنها حياطة على قومه ، ولم يزل يحاربُ جيوش الموحدين فيرجعوا عنه خاسرين .

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمئة المذكورة وفدَ على الأمير محمد بن عبد الحق جرمون بن رياح العربي السُفياني في جماعة من قومه مخالفاً على الرشيد، فتلقاه الأمير محمد بالبر وأقام عنده إلى أن تُوفي في ذي الحجة من السنة المذكــورة .

وفيها وُلد الأمير عبد الواحد بن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

وفيها نزل الأمير أبو معرف مدينة مكناسة فأقام عليها ثلاثة أيـام وارتحل عنها إلى سلفات ، فاتصل الخبرُ بالرشيد فبعث إلى حمايتها أبا محمد بن وانودين وأخاه يوسف والقائد أبا ضربة النصراني في جيش من الموحدين والروم ، فوصلوا إلى مكناسة فأفنوها بالمغارم الثقيلة ، وأفقروا أهلها ، ثم خرج أبو محمد بن وانودين بعسكره ، فالتقا بمحمد بن عبد الحق وهو في نحو خمسين فارساً من قومه وإخوته وعشيرته ، فهُزم ابن وانودين وقتـل أبو ضربة النصراني ، قتله محمد بن إدريس بعد أن ضربه القائد ضربة شقّ بها مقدم رأسه وجبهته ، وقُتل من الموحدين والروم ما يزيد على مئة رجل ، فرجع ابن وانودين إلى مكناسة مهزوماً ، فأخرجه أهلها منها ورجع الى مراكش فقتله الرشيد .

السنة التاسعة والثلاثون وستمئة

فيها بعث الرشيد جيشاً من الموحدين والعرب والروم إلى قتال بني مرين فالتقا بهم الأمير محمد بن عبد الحق ببلد كرت فهزمهم هزيمة شنعاء واحتوت مرين على ما كان في عسكرهم من الأموال والخيل والرجال والسلاح .

وفيها سار أشياخ مرسية الى الفنش فثقّفهم .

وفيها انفسد جميع الرئيس أبي إسحاق بن اشقيلولة ومات أخوه الطريجــل .

السنة الموفية أربعين وستمئة

فيها في يوم الخميس التاسع لجمادا الآخرة منها تُوفي أمير المومنين عبد الواحد الرشيد وولي مكانه أخوه أبو الحسن السعيد .

وفيها نزل الأمير يحيا بن أبى حفص صاحب إفريقية مدينة تلمسان على يغمراسن بن زيان ، وكان في عسكر الأمير يحيا المذكور أربعة وعشرون بن زيان ، وكان فى عسكر الأمير يحيا بن أبى حفص المذكور أربعة وعشرون ألفاً من الرماة فدخلها عليه عنوة على باب ايلان يوم نزوله عليها وذالك في شهر صفر من السنة المذكورة ، وفرّ يغمراسن ومَن كان معه من قومه عنها إلى المدينة ، فأقام القتل والنهب فيها يوماً وليلة ، ثم نادا منادى الأمير يحيا بالأمان ، وأقام الأمير يحيا أياماً حتى هدنها وسكنها ، فلما أراد الرجوع إلى إفريقية عرض ولايتها على مَن فى عسكره من أشياخ الموحدين فكلهم رغِب عنها وامتنع منها ، فلما رأا ذالك قال لهم إنما امتنعتم من ولايتها خوفاً من شيطانها وليس لها غيره ، فبعث إلى يغمراسن فأمّنه فأتاه فبايعه فسجّل له على تلمسان وأحوازها .

وفيها ملك العدو النصرانى مدينة دانية ولقنت الكبرا وشنتبور واللش والاريولة وقرطاجنة من بلاد شرق الأندلس .

وفيها قام ابن خلاص بسبتة بعد موت الرشيد الذى كان ولاه عليها واستبدّ بها لنفسه ثم خطب بها بنفسه للأمير يحيا الحفصى صاحب إفريقية .

وفيها ملك العدو حصن مرينة ومنتملين وقرناس والحنس وشنتوبَل من الأندلس .

وفيها تُوفي الامام الخليفة أبو جعفر منصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر بالله العباسى ببغداد ، وكان رحمه الله سمحاً جواداً عادلا قريباً من الناس رحيمَ القلب كثيرَ الصدقة سراً وجهراً ، وهو الذى بنا المدرسة الشاطبية ببغداد ، ووقفها على المذاهب الأربعة ووقف عليها الأوقاف الكثيرة

ورتب فيها للفقهاء جميع ما يحتاجون إليه من الأطعمة والأشربة والفواكه والحلاوات ، وجعل لهم فيها الحمامات والمرستان ، ولم يكن عنده تعصب على مذهب وليس فى الدنيا مثل هاذه المدرسة ولا بُنِيَ مثلها فى الاسلام ، وبنا مع ذالك المشاهد والمساجد ، وعمر الخانات فى الطرقات . وكان يزور الصالحين ويزور المشاهد : مشهد علي رضي الله عنه ، ومشهد ولده الحسين ويحسن إلى العلويين .

وفيها ولي ولده عبد الله أمير المومنين المستعصم بالله .

السنة الحادية والأربعون وستمئة

فيها نقض أمير المومنين السعيد جامع حسان الذى برباط الفتح وصنع بخشبه الأجفان الغزوانية فكانت مباركة فأحرقت بوادى أزموز .

وفيها توفي الفقيه القاضى الورع علي بن محمد بن أبى عشرة من أهل فاس ، ولِيَ قضاء بلنسية سنة سبع عشرة وستمئة ، ثم نقل منها إلى قضاء جيان ثم جاز إلى العدوة فاستوطن فاس إلى أن مات فدفن بخارج باب الشريعة .

السنة الثانية والأربعون وستمئة

فيها قوي أمر الأمير أبى معرف محمد بن عبد الحق وتمكن ملكه بالمغرب ، فأخبر أمير المومنين السعيد بقوة سلطانه ، وأعلم أنه قد استحوذ على جميع بوادى المغرب ، وأنه زحف إلى المدن ، وأن جميع القبائل دخلت تحت طاعته خوفاً من شدة بأسه ، فبعث إليه بجيش كبير جرار يزيد على عشرة آلاف فارس من أنجاد الموحدين والعرب والغز والروم ، فسار الجيش قاصداً لقتاله ، فسمع الأمير محمد باقبال الجيش ، فاستعدَّ للقائه ، فالتقا الجمعان بموضع من أحواز فاس يعرف باغلان فكانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع مثلها من أول النهار إلى آخره ، فلما كان عشي النهار دفع القائد ابن القمط النصرانى بجميع مَن معه من الروم على جيش بنى مرين فحمل فيهم

الأمير محمد طالبـاً للظفر أو للشهادة ، فضربه نصراني من زعمـاء الـروم اسمه جوان غيطان بحربة كانت بيده فمات في المعترك رحمه الله ، وانهزمت مرين واشتدَّ الظلام فاتخذوا الليل جملا فاسروا طول ليلتهم بأموالهم ورجالهم وعيالهم فاصبحوا بجبال غياثة فتمنَّعوا بها أياماً ، وانصرف جيش الموحدين إلى مراكش ، وكان موت الأمير محمد عشية يوم الخميس التاسع من جمادا الأخرا من السنة المذكورة ، فولي بعده أخوه أبو بكر بن عبد الحق .

وفي هاذه السنة ولد أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلميـن المجاهد يعقوب بن عبد الحق .

وفيها توفي الشيخ الولي الصالح المبارك أبو عمران الجنياري من أهل فاس وأحد رجال المغرب ، وأيوب بن يكنول والد الفقيه الخطيب محمد بن أبي الصبر ، وتوفي كلا هاذين الشيخين وهما ابنا مئة سنة وثلاث سنين ، وكلاهما أدرك الشيخ أبا مدين وسمع منه وأخذ عنه .

وفيها تحرك ، قاقان ملك التطر نحو العراق فملك مدينة البـاب والأبواب وقتل فيها خلقاً لا يحصا لهم عدد .

الباب الخامس

فى ذكر الأمير أبى بكر بن عبد الحق رحمه الله تعالا

هو الأمير ابو بكر بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزرير بن بجوس بن جرماط بن مرين الزناتى ثم المرينى الحمامى ، كنيته أبو يحيا ، أمه حرة اسمها عزونت بنت أبى بكر بن حفص التنالفتى .

مولده فى سنة ثلاث وستمئة .

صفته رحمه الله : أبيض اللون مُشربٌ حمرة تامُ القد سبط الجسم حسن الوجه والعينين أجلح الرأس مطلق اليدين أيسر أعسر يقاتل بكلتا يديه ويطعن بحربتين فى حالة واحدة ، فارسُ زناتة فى وقته وزمانه ، كان بطلا شجاعاً مؤيَّداً منصوراً ذا عزم وحزم وإقدام ، يقوم فى الحرب مقام جنده . وكانت الأبطال تهاب مبارزته والزعماء يخافون محاربته ومناجزته . وكان مع ذالك كريم الأخلاق ، جواداً كالغمام ، عطاياه تعجز عنها الملوك العظام ، وافياً بالعهود صادقاً فى الأقوال والوعود ، كريم العفو شديد الصفح ، ذا أناة وحلم وحسن أخلاق وكرم طباع وهو كما قيل فيه :

فاق ملوك الأرض فى الزعامهْ ... وبالوفا والصدق والكرامهْ
يستوهبُ الدعا من العباد ... ويكرم الصُلحا والزهاد
ويسرد الصومَ على الدوام ... مبتهلا للواحد العلام

قال صاحب التاريخ :

لما قُتل الأمير محمد بن عبد الحق اجتمعت قبائل مرين وأشياخها إلى أخيه الأمير أبى بكر بن عبد الحق وبايعوه على السمع والطاعة وقتال من خالفهم من قبائل العرب ، فلما تمَّتْ بيعتُه واستقرت فى الملك طلعتُه ، كان أول شيء فعله أنه جمع أشياخ بنى مرين ورؤساء قبائلهم وقسم عليهم

بلاد المغرب ، فأنزل كل قبيلة فى ناحية منه ، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض وغلبت عليه من البلاد طُعمة لا يشاركهم فيها غيرهم ، وأمر كل واحد من أشياخ القبائل أن يُركب مَن فى قبيلته من الرجال ويستكثر من الفرسان ، ثم سار هو وقرابته وإخوته وحشمه وعبيده وأعوانه فنزل بين بلد سلفات وجبل زرهون ، وكان يُغير أحياناً على مدينة مكناسة ، فاتصل خبره بالسعيد فعمل على الحركة للمغرب لينظر فى أمره ، فسار من حضرة مراكش حتى دخل مدينة فاس فوسعت بنو مرين أمامه إلى جبال ورغة ، وحين وصل السعيد الى مدينة فاس أتاه جملة من قبائل بنى عسكر فبايعوه ، فأمنهم وأعطوه أربعين شخصاً من أبنائهم رهناً ، فجعلهم بدار الجوزة من مدينة فاس .

ثم أتاه يغمراسن بن زيان أمير بنى عبد الوادى من تلمسان فى ألف فارس من قومه ، فبايعه بفاس وخلع عليه السعيد وأعطاه أموالا كثيرة وسلاحاً وخيلا وأمره أن يخرج بقومه الى قتال أبى بكر وقومه وأمره أن يستأصلهم ويقطع شأفتهم وأعطاهم الف فارس من الموحدين وألفاً من الجند ، فخرج يغمراسن بن زيان بالجميع حتى وصل الى وادى ورغة فلقي وادي ورغة حاملا ، فأقاموا عليه حتى نقص ، فجازوه وساروا فى تبع الأمير أبى بكر حتى وصلوا إلى كرت ، ثم رجعوا ورجع يغمراسن لفاس ، فقيل له إنك مغدور ، فخرج هو وقومه على باب الفتوح وتبعه بنو عسكر حتى وصل إلى خولان ، فوقف هنالك ولحق به بنو عسكر ، فقالوا له يايغمراسن مراهيننا الأربعون عند هاذا الرجل ، فما رأيك فى هاذا الشأن ؟ فقال لهم إن هاذا الرجل عزم على غدرنا وغدركم ، ولكنا ننظر فى خلاص مراهينكم ، فساروا وجازوا وادي سبو ، فلقوا الأمير أبا بكر واقفاً مع قبائل مرين على ضفة الوادى عند صخرة أبى يباشر ، فأراد يغمراسن وبنو عسكر أن يقاتلوه ، ثم إنهم تفاوضوا فى ذالك وقالوا والله ما نضرب فيهم حتى يقتل واحد منهم عشرة منا ، فانصرف يغمراسن وبنو عسكر إلى جهة المقرمدة ، فنزلوا قريباً منها ، فأخبر السعيد بذالك ، فقال لوزرائه : ابعثوا إلى يغمراسن يصل إلينا وهو آمن ، فقيل ليغمراسن إن وصلت اليه ثقّفك فامتنع من الرجوع إليه ، فبعث اليه السعيد القائد أبا المسك بالأجناد والروم ، فوصل إلى يغمراسن وهو بظاهر المقرمدة ، فوقع

الكلامُ بينه وبين أبى المسك فى شأن تسريح مراهين بنى عسكر ، فامتنع من ذالك ، فردَّ بنو عسكر أيديهم على السيوف فتقاتلوا معهم فقتل جميع الروم الذين كانوا مع القائد أبى المسك وأخذوا جميع ما ألفَوه بالمحلة ، فلم يزل القوم مثقّفين عند بنى عسكر حتى أطلقوا لهم مراهينهم ، فأطلقوا أبا المسك ومَنْ معه ، وذالك كله فى شهر ذى الحجة من سنة اثنتين وأربعين وستمئة .

وفيها دخلت مدينة قادس بالسيف فنهبوها وبقيت خالية فبناها القائد أبو عبد الله الرنداجى .

السنة الثالثة والأربعون وستمئة

فى أول محرم سار السعيد من فاس إلى مراكش .

وفيها انتقل الأمير أبو بكر بن عبد الحق حتى نزل بالقرب من مكناسة ، فكان يباكرها بالقتال والغارات ويراوحها حتى ملكها بمحاولة شيخها علي بن أبى العافية ، فدخلها فى شوال من السنة المذكورة ، فهو أول ملك من بنى مرين ملك البلاد ، واقتنا الطارف والتلاد ، وضرب الطبول ونشر البنود ، وجمع العساكر وجند الأجناد ، وأعطِيَ على كل مَن حاد عن طاعته النصرَ والتمكين ، وكانت سنوه عنوانَ سعْد مرين .

وقيل إن السعيد لما طالت إقامته بفاس اتصل به أن أهل مدينة أزمور أشاعوا عليه أنه قد مات فأحرقوا أجفانه التى كان صنعها من خشب جامع حسان ، فحلف أن يدخل أزمور بالسيف ، فارتحل نحوهم فكلّمه العلماء والصلحاء فيها فعفا عنهم وقالوا : كفِّر يمينَك بان تدخلها من باب والسيفُ فى يدك مصلتاً ، وتخرج على باب آخر فدخلها ليلا كذالك ، فلقي فى طريقه سخان حمام فقتله ، وأخذ أهلَ أزمور بالمغارم الثقيلة حتى لم يُبقِ لهم شيئاً ، وارتحل إلى مراكش وساءت أحوال المغرب وانقطعت الطرقات .

فلما اشتد الأمر على أهل مكناسة خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا بنى مرين ، فبعث علي بن أبى العافية وثلاثة من أشياخها إلى الأمير يعقوب بن عبد

الحق أخي الأمير أبى بكر فأدخلوه البلاد ومكنوه منها ، فبعث إلى أخيه أبى بكر من مجباها الثلث ، فقدم عليه ودخلها فانه كان كبيره وهو الأمير فـي الوقت ، فقدم على ثلثه خديمه عبد الحق بن تاغلا وبقي الثلثان لأبى بكر .

وفى هاذه السنة فى شهر صفر منها سافرت الحرة الصالحة المباركة أم اليمن بنت محلى فحجت بيت الله الحرام وجاورت بمكة والمدينة وقعدت ببلاد المشرق أربعة أعوام ورجعت إلى المغرب ، فوصلت إلى مدينة فاس فى شهر ربيع الآخر من سنة سبع وأربعين وستمئة ، فأقامت بالمغرب إلى أن توجهت ثانية للحج ، فخرجت فى محرم عام اثنين وخمسين وستمئة ، فدخلت إلـى مكة وحجت ثانية ورجعت إلى مصر فتوفيت بها فى ربيع الآخر من سنة ثلاث وخمسين وستمئة ، وحضر وفاتها الحاج موسا اللمائى المعروف بأبى القاسم ، وهو الذى أخبر بموتها وكانت إمرأة صالحة مقتصرة على أكل الحلال ولباسه وكانتْ مجابةَ الدعوة .

وفى آخر سنة ثلاث وأربعين وستمئة حين نازل ألفنش إشبيلية حدثت للأمير يعقوب بن عبد الحق عزيمة على الجواز إلى الجهاد ونصر الاسلام ، فشرع فيها قواه ، فلما سمع أخوه بذالك كتب إلى الوزير أبى علي بن خلاص صاحب سبتة ألا يمكنه من الجواز ورغبه فى ثقافه معه ، فوصل الأمير يعقوب بن عبد الحق إلى قصر المجاز ، وهو على عزمه ، فاجتمع هنالك بالشيخ الولي الصالح يعقوب بنْ هارون فجلس معه على صخرة هنالك فمنعه من الجـواز وقال له ما لك من هاذه العدوة زوال فى هاذا الوقت حتى تملك جميع بـلاد المغرب وتفتح حضرة مراكش وتقطع ملك بنى عبد المومن ، وحينئذ تجوز إن شاء الله تعالا كما تحب ، وعلمك منشور ، وجيشك منصور ، فرجع عن عزمه .

وفيها كسفت الشمس كسوفاً شنيعاً .

وفيها قتل الأمير أبو بكر بن عبد الحق كثيراً من عرب رياح .

وفى رجب ركب الوزير أبو علي بن خلاص البحر من سبتة فى مركب معد بعد أن جمع المنجمة ، فاختاروا له طالعاً سعيداً يركب فيه البحـر ،

فاعتمد على قولهم وركب البحر حين أمروه بالركوب ، فلم يصل به الغراب الميمون في البحر أميالا حتى غرق ومات جميع مَن كان فيه .

وفيها أعطا الأمير ابن الأحمر مدينة جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر وصالحه بذالك على ما بيده من البلاد لعشرين سنة ، وقيل كان ذالك في سنة أربع وأربعين .

وفيها تُوفي الشيخ الصالح الامام الحافظ العالم تقي الدين ابن الصلاح ، والشيخ عثمان بن عبد الرحمان ابن عثمان ، كان إماماً في الحديث والفقه ، واستوطن بيت المقدس ، ثم قدم دمشق لما خرب بيت المقدس ، فأم بدمشق ودرس بها وحدث ، وولاه الملك الأشرف دار الحديث ، وتُوفي ليلة الأربعاء الخامس والعشرين لربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمئة ، وصُلّي عليه بجامع دمشق ، ودفن بمقابر الصوفية ، سافر إلى البلاد ، فسمع بنيسابور من منصور بن عبد المنعم .

قال صاحب التاريخ :

وحين ملك الأمير أبو بكر مدينة مكناسة اتصل الخبر بالسعيد وقال : ما أرا أمر بني مرين إلا في اعتلاء مزيد .

السنة الرابعة والأربعون وستمئة

فيها خرج أمير المومنين السعيد من مراكش إلى سجلماسة لما سمع أن عامله عليها عبد الله بن أبي زكرياء قام عليه بها فوصلها فهرب أمامه فاتبعه حتى ظفر به فقتله ورجع إلى مراكش .

وفيها أعطا ابن الأحمر قلعة جابر للروم .

وفيها تُوفي الفارس الأجل أبو عياد بن عبد الحق قتله السبع بوادي بهت .

السنة الخامسة والأربعون وستمئة

فيها اشتدَّ الحصارُ على أهل إشبيلية ، فصنع إبراهيم بن سهل الاسرائيلى قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصرُ بأمراء العرب ، وذالك إذ كان العدوُّ عليها ، وهي هاذه القصيدة :

وردًا فمضمونٌ نجاحُ المصدر — هي عزَّةُ الدنيا وفوزُ المحشر
نادا الجهادُ بكم بنصر مضمر — يبدو لكم بين القنا والضُّمَّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا — غبز العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوَّغوا كدرَ المناهل فى السُّرا — تَرووا بماء الحوض غير مكدر
وتجسموا البحر الأجاج فانه — سببٌ به تَرِدون نهْرَ الكوثر
وتحملوا حرَّ الهجير فانه — ظلٌّ لكم يومَ المقام الأكبر
يامعشر العرب الذين توارثوا — شِيَمَ الحمية كابرًا عن أكبر
إن الالاه قد اشترا أرواحكم — بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحقُّ بنصر دين نبيِّكم — وبكم تمهَّد فى قديم الأعصر
أنتم بنَيْتُم ركنهُ فلتدعموا — ذاك البناء بكل لدن أسمر
لكم عزائم لو ركبتم بعضها — أغنتْكمُ عن كل طرف مضمر
لو أنكم جهَّزتم عزماتكم — لهزمتمُ منها العدوَّ بعسكر
ولو أنكم سدَّدْتُمُ هِمَّاتِكُمْ — طعنتْهُمُ قبلَ القنا المتأطِّر
أضحا الهدا يشكو الظماء وأنتمُ — ظلٌّ وريٌّ كالربيع المخضر
وعلا الجزيرة غيهب وغمودُكم — مطوية فوق الصباح المسفر
الدين ناداكم وفوق سروجكم — غوثُ الصريخ وبغيةُ المستنصر
لم يبقَ للاسلام غيرُ بقيةٍ — قد وطنت للحادث المتنكر
والكفرُ ممتدُّ المطامع والهدا — متمسك بذناب عيش أغبر
البيضُ تقلقُ فى الغمود مضاضة — للحق إذ يُلقِى يدَ المستصغر
والخيل تضجر فى المرابط غيرة — ألا تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكَّروا من معلم كم دمروا — من معشركم غيَّروا من مشعر
كم أبطلوا سننَ النبيِّ وعطلوا — من حلية التوحيد صَهْوةَ منبر

أين الحفائظ ما لهـا لم تنبعـث ؟ … أين العزائم ما لها لا تنبـــرى ؟
أيهز منكم فارس فى كفـــــه … سيفاً ودينُ **محمد** لـم ينصـــر ؟
أم كيف تفتخـر الجيادُ بأعــــوج … فيكم وتنتسب الرماحُ لسمهـــر ؟
جدوا وتموا بالجهـاد أجوركـــم … ما خاب قصد مشمر ومسمـــــر
هزوا معاطفكم لسعي تكتســـا … فيه ثيابُ مثوبةٍ أو مفخـــــر
عند الخطوب النكر يبدو فضلكـم … والنار تخبر عن ذكاء العنبـــر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكـــم … عمداً بنفس الوامق المتحيـــــر
ولو أنه نادا النصير لخصكـــم … ودعاكم ياأسرتـى يامعشـــرى !

وفيها ملك الرومُ شرق إشبيلية بالسيف : قطنيانة ، وحرمـى ، وغليانة ، والرسين ، وشعتس ، والقلعة ، والقليعة ، وحصن القصر .

وفيها أعطا ابن محفوظ للروم مدينة طلبيرة ، والعلى ، وشلب ، والجز ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنة ، والحرة .

وفيها خرج أمير المومنين السعيد من مراكش برسم تمهيد بلاده فى جيوش عظيمة ، وعساكر جمة جسيمة ، وجنود وافرة ، وعدة سابغة ، وأمم لا تحصىا من الموحدين وقبائل المصامدة والعرب والأندلس والأغزاز والروم ، فسار بهاذه الجنود حتى نزل وادي بهت ، وقد اهتزت بلاد المغرب بقدومه خوفاً من سطوته لكون أكثرهم كان قد بايع لبنى مرين ودخل فـى طاعتهم ، فلما تحقق الأمير أبو بكر بن عبد الحق نزوله بوادى بهت وعلـم قربه منه خرج وحده ليلا من مكناسة متحسساً له ومتجسساً ومتطلعاً عـلى عسكر السعيد فسار حتى وصل المحلة فشقها ودار بها وشاهد أحوالها وعاين كثرة جيوشها وأقيالها ورماتها وما فيها من العدد والأموال وآلات الحرب ، فرأا من ذالك شيئاً ما لأحد بلقائه من قبل ، فعلم أنه لا طاقة له بحربه وان الحزم التوسع أمامه والتخلي له عن البلاد حتى يرا ما يفعل الدهر ، فبعث من فوره إلى قبائل مرين المتفرقة فى النجود والوهاد وأقطار المغرب فاجتمعوا إليه فى أقرب حين ، وأقبلوا نحوه مسرعين ، فارتحل بهم من فوره إلى تازة وقلاع الريف ، واسلم له مكناسة وجميع الغرب ، وهرب أشياخ مكناسـة

وأعيانها لقلعة بنى سعيد من جبل زرهون ، فأقبل السعيد حتى نزل بظهر مكناسة فتلقاه جميع أهلها بأولادهم وعيالاتهم ، وصبيانُهم قد رفعوا المصاحف والألواح على رؤوسهم ، والشيخ الفقيه الخطيب الصالح أبو علي منصور بن حرزوز في مقدمتهم ، فطلبوا منه العفو واعتذروا له فقبل عذرهم وعفا عنهم وأمنهم ، وارتحل عنها إلى مدينة فاس ، فنزل بظاهرها من ناحية القبلة ، فخرج اليه فقهاؤها وأشياخها وفى مقدمتهم الشيخ الصالح عبد الله بن موسا الفشتالى ، فسلموا عليه فرحب بهم وتكلم لهم خيراً وقضا حاجاتِهم ، وسألوه تشريفَهم بدخوله مدينتهم فأبا عليهم وذالك فى آخر سنة خمس وأربعين وستمئــة .

السنة السادسة والأربعون وستمئة

فأقام السعيد بظاهر مدينة فاس إلى الثالث عشر من المحرم ، وعزم على الرحيل إلى تلمسان ، فخسف بالقمر كله تلك الليلة ، فلما أصبح يــوم الأربعاء الرابع عشر ارتحل السعيد فسار خطوات فانكسر لواؤه المنصور الذى يحمل أمامه فتطير به فرجع ونزل ولم يرتحل ذالك اليوم حتى إلى الغــد ، فلما كان يوم الخميس الخامس عشر من محرم ارتحل ، فسار حتى وصل الى رأس عقبة البقر فرد رأسه ونظر إلى المدينة فقال لمن حوله من خاصته لئن رجعنى الله إلى هاذه القرية الظالم أهلُها لاقتلَنَّ نبيَّها ، يعنى الفقيه الصالح الشيخ عبد الله الفشتالى ، فعُرف بذالك الفشتالى رحمه الله ، فقــال إنه لا يرجع ، فكان كذالك ، فسار السعيد حتى وصل إلى رباط تازة فنزل بظاهره ، فبعث إليه الأمير أبو بكر بن عبد الحق ببيعته مع يحيا بن الوزير الوطاسى وبعث إليه هدية من الخيل العراب والدرق اللمطية وطلب منه أمانه له ولجميع قبائل مرين فقبل منه بيعتَه ، وكتب إليه بأمانه على أن يبعث معه حصة من قبائل مرين برسم الخدمة ، فبعث إليه الأمير أبو بكر وقال ياأمير المومنين لا تتعب نفسك فى أمر يغمراسن أنا أكفيك أمره ، فارجع إلى حضرتك وقونى بالمال والعدة وأنا أبيد جميع عبد الوادى وغيرهم ممن ثار بتلك البلاد مــن قبائل زناتة وأفتح لك البلاد وأمهدها ، فعزم السعيد على ذالك ، ثم استشار

أشياخ الموحدين فأشاروا عليه أن لا يفعل وقالوا له يأمير المؤمنين : إن الزناتى أخ الزناتى لا يخذله ولا يسلمه ، فتخاف أن يصطلحا ويجتمعا على حربك ، فتكون المشقة بهم أعظم ، والمقاساة فى حربهم أشد ، فرجع عن ذالك وكتب إلى الأمير أبى بكر يشكر قوله ويأمره أن يقعد بموضعه من قلاع الريف ويبعث إليه بالحصة التى طلب منه ، فبعث إليه الأمير أبو بكر بخمسمئة فارس من قبائل مرين مع ابن عمه عياد بن يحيا ، فسار السعيد إلى تلمسان ، فلما قرب منها خرج يغمراسن عنها وأسلمها إليه وفر أمامه هو واخوانه وجميع قبائل عبد الوادى إلى تامزجدرت ، فتحصنوا بها ، فأقبل السعيد بجميع جيوشه حتى نزل عليه بها ، فكان من قدر الله تعالا أن مات عليها مقتولا ، قتله بنو عبد الوادى ونهبوا محلته وأمواله ، وتفرقت جيوشه فى كل ناحية ، واحتوا يغمراسن بن زيان على جميع ما كان بالمحلة وعاد به الى تلمسان .

فاتصل خبر موته بالأمير أبى بكر بن عبد الحق ، وقدمت الحصة التى توجهت مع السعيد للخدمة فأعلموه بموت السعيد وافتراق جيوشه ونهب أمواله وحرمه ، فجد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها ، فأقام بها أياماً وخرج إلى رباط تازة فبادرها خوفاً أن يسبقه بنو عبد الوادى إليها ، فملكها الأمير أبو بكر وذالك فى منسلخ شهر صفر من سنة ست وأربعين المذكورة ، وبعد موت السعيد بثمانية أيام ، فأقام برباط تازة عشرة أيام فخرج منها ففتح كرسيف وجميع حصون ملوية ، ثم سار إلى مدينة فاس يحاول أمرها مع أشياخها ، فراسلهم فخرجوا اليه فبايعوه بالرابطة التى بخارج باب الشريعة من أبواب فاس ، خرج إليه الفقهاء والأشياخ ، فدخل المدينة واستقر بقصبتها وأخرج الموحد الذى كان عاملا عليها للسعيد بعياله وأولاده وحشمه بعد أن أمنه الأمير أبو بكر وبعث معه خمسين فارساً يبلغونه إلى وادى أم الربيع ، وكان دخول الأمير أبى بكر بن عبد الحق مدينة فاس وانقطاع ملك الموحدين منها يوم الخميس وقت الظهر ، وهو اليوم السادس والعشرون من ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمئة وذالك بعد موت السعيد بشهرين . فاستقامت له الأمور بالمغرب وتمهد له الملك ، وقدمت عليه الوفود من البلدان للتهنئة بالملك ، وتهدنت البلاد وصلحت الأموال ، وسكنت الفتون ، وتأمنت الطرقات،

وكثرت الخيرات ، وتحرك التجار ، وانطلقت الأسفار ، وأمر القبائل بسكن الأوطية ، وعمارة القرا والمجاشر الخالية ، والاستكثار من الحرث ، فصلح أمر الناس ورخصت أسعارهم ، وأعطا حصون تازة وجميع حصون ملوية لأخيه يعقوب ، وأقام هو بمدينة فاس بقية سنة ست وأربعين وصدراً من سنة سبع وأربعين والوفود تأتيه من كل ناحية فيصلهم بالخيل والخلع والمال .

وفي ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من سنة ست وأربعين دخل النصارا مدينة إشبيلية .

وفيه ولي المرتضا بمراكش وأحوازها ، وهو عمر ابن السيد إسحاق بن يوسف بن عبد المومن .

وفيه أراد بنو وطاس أن يغدروا أولاد عبد الحق ، فعرف مهيب الوطاسي بذالك الأمير أبا بكر فأخذ حذره منهم ، وأمر من كان عندهم من بني مرين بالرحيل عنهم فارتحلوا إلى عين الصفا ثم إلى كرسيف .

وفيها احترقت أسواق فاس من قنطرة الصباغين بقرب باب السلسلة فاحرقت سوق السقاطين والغمادين والسبيطريين والصباغين والصوابنيين ووصلت إلى باب الجنائز من جامع القرويين ، فوقف هنالك الشيخ الصالح عبد الله الفشتالي بعد أن احرقت مصاريع باب الجنائز فقال أيتها النار إلى أين ؟ هاذا حدك فارجعي باذن الله ! فوقفت النار بقدرة الله تعالا هنالك ولم تتعد ذالك الموضع .

وفي يوم السبت الحادي والعشرين من جمادا الأولا توفي أبو علي بن خلاص بمرسا وهران إثر صلاة العصر من اليوم المذكور وحمل ميتاً إلى بجاية فدفن بها .

وفيها توفي الشيخ الامام المجتهد جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر المالكي المعروف بابن الحاجب وكان مولده سنة إحدا وسبعين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله تعالا سنة ست وأربعين وستمئة ، وقد بلغ من السن خمساً وسبعين سنة وثلاثة أشهر ، وكان في وقته فارس المالكية

وفقيهها ، جمع بين الأصول والفروع والعربية والقراآت والفرائض والعروض ، وصنف في أكثر ذالك ، فمن تصانيفه كتابه المسمًا بابن الحاجب ، ومنها مُنتها السول والأمل فى علم الأصول والجدل ، وشرح مفصل الزمخشرى ، وله مقدمة مفيدة فى النحو سماها كافية ذوى الأرب فى معرفة كلام العرب ، وقد رجَزها وسماها الوافية ، بنظم الكافية ، وله نظم فى العروض والقوافى سماه المقصد الجليل فى علم الخليل ، ومن شعره رحمه الله ما أنشدنيه الشيخ الصالح المتصوف أبو مدين الجنيارى ، قال أتيت الشيخ العالم جمال الدين فى سنة أربع وأربعين أريد أن يدعُوَ لى واستشيره فى أمر أردت أن أصنعه فدعا لى ثم أنشدنى لنفسه :

فوض الأمر إلى مَن دبَّـــــــره — فسواه ما لــه من مقـــــــــدره
لا تؤمِّل غيرَ مــولاك وســـــــل — منه فى كلِّ الأمــور الخيـــــره

السنة السابعة والأربعون وستمئة

فيها وصلت الحاجَّة المباركة أم اليمن من الحجاز .

وفيها تحرك الأمير أبو بكر من مدينة فاس إلى بلاد فازاز ومعدن عوام وذالك فى شهر رجب منها ، واستخلف على مدينة فاس مولاه السعود بن خربَاش الحشمى ، وسار حتى وصل معدن عوام ، فنزل بظاهره وشرع فى مغرم مَن هنالك من قبائل جاناتة ، فاجتمع فى غيبته نفر من مشيخة فاس إلى قاضيها أبى عبد الرحمن المغيلى فكلَّموه فى خلع الأمير أبى بكر وقتـل مولاه السعود الذى تركه عليهم وطرد رجاله عن المدينة ، وقالوا له : إن الأمر قد استقام للموحدين ، وقد تمَّت البيعة للمُرتضا وهو أحق بالأمر ، فنهاهم عن ذالك وحذرهم سوء عاقبتـه ، فقالوا : لابد منه ، فقال لهم : إن عزمتـم فافعلوا ما أردتم وأنا تابع لكم ، فتراموا على خلع الأمير أبى بكر وقتل مولاه السعود الذى تركه خليفة عليهم وأن يكتبوا بيعتهم إلى المُرتضا ، فاجتمع رأيهم على ذالك وبعثوا إلى قائد الروم زنار الذى بالقصبة فتواطأوا معه على ذالك ومع القائد شديد الرومي الذين كان الرشيد ولاهما قيادة فاس وكانا

ساكنين فى مثني فارس من الروم ، فلم يزالا بها إلى أن ملكها الأمير ابو بكر وتركهما على حالهما وخدمتهما وكانا مائلين بهواهما إلى الموحدين بسبب ذالك، فلما عزم أشياخ فاس على قتل السعود وافقهم القائدان المذكوران على ذالك وسارعا إليهم وضمنا لهم قتل السعود ، فلما كان يوم الثلاثاء الموفى عشرين من شعبان من سنة سبع وأربعين طلع أشياخ فاس إلى القصبة برسم الصباح على السعود على ما جرت به العادة فسلموا وقعدوا ، فجرا بين السعود وبين المشرف ابن جشار كلام فى الرباع المخزنية ، فأغلط له ابن جشار فى القول فغاظ ذالك السعود فلطمه فى وجهه وأراد تشقيفه ، فقام المشرف ابن جشار مغضبا فصاح بالأشياخ وقواد الروم وناداهم بشعاره الذى جعلوه أمارة بينهم فى قتل السعود ، وكان القائدان واقفين بجميع جيوشهما أمام القبة فتبادرت الروم إلى السعود وكانوا بسيوفهم فقتلوه هو وأربعة من رجاله ، فلما قتل السعود وقطعوا رأسه جعلوه على عصّار (11) وطافوا به جميع المدينة ، ودخل الأشياخ القصبة فأخذوا ما وجدوا فيها من المال والأثاث والخول فاقتسموه بينهم وخرجوا منها وأنفقوا على جيش الروم وسدوا أبواب المدينة وبعثوا ببيعتهم الى المرتضا وأن يبعث اليهم عاملا ليقبض المدينة فاتصل الخبر بالأمير أبى بكر وهو بمعدن عوام فجد السير نحوهم فوجد المدينة مغلقة فى وجهه وأشياخها مستعدين لقتاله ، فحاصرهم بها أياماً فلم يقدر على شيء ، ولما سمع يغمراسن بقيام أهل فاس على الأمير أبى بكر طمع فى رباط تازة وخرج من تلمسان نحوها ، فاتصلت الأخبار بأبى بكر أن يغمراسن خرج برسم ذالك فترك على حصار فاس حصة من بنى مرين تقاتلها وارتحل عنها لمحاربة يغمراسن .

---

11) عود غليظ كعصا الفاس تعصر عليه الثياب بعد غسلها لازالة الماء منها تسهيلا لتيبيسها ، ومازالت الكلمة مستعملة فى العامية الفاسية الى اليوم .

الخبر عن حركة أبى بكر لقتال يغمراسن

قال الراوى :

فارتحل الأمير أبو بكر عن فاس بعد أن ترك عليها ورياس المرينى فى خمسمئة فارس يباركها بالحرب ويراوحها ، فوصل يغمراسن إلى قُرب تازة ومعه عبد القوي التجينى ، فوصل الأمير أبو بكر إلى تازة وأقام بظاهرها ثلاثة أيام ، ثم ارتحل عنها إلى لقاء يغمراسن ، فلما علم يغمراسن بقدوم أبى بكر إليه كرَّ راجعاً فتبعه أبو بكر حتى الى أحواز وجدة ، فكانت بينهما هناك حروب عظيمة هزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء وقتل حمامة وفر وترك أمواله وأقبيته فاحتوا الأمير وبنو مرين على ذالك كله ، وقتل فيها من بنى عبد الوادى جماعة من خيارم وأنجادهم ، ومات فيها من بنى مرين عبد الحق بن محمد بن عبد الحق قتله إبراهيم بن هشام ، وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق وأولاد زيان العبد الوادى ، ثم رجع الأمير أبو بكر إلى فاس فوصلها فى آخر يوم من ذى الحجة سنة سبع وأربعين وستمئة المذكورة فشرع فى قتالها .

وفى سنة سبع وأربعين وستمئة توفي الأمير أبو زكرياء يحيا صاحب افريقية وولي مكانه ولده عبد الله المستنصر ، وكانت وفاته ببونة من بلاد العناب وولي بعده ولده المذكور .

وفيها قتل القائد الرنداجى ثمانين من زعماء الروم بجزيرة قادس .

وفيها ملك الفقيه أبو القاسم العزفى سبتة فقتل قائدها شقاف والوزير أبا عثمان بن خلاص وثلاثة من أشياخ البلد ، وذالك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان .

وفيها توفي عبد القوي التجينى بعد رجوعه من حركة إيسلى ، وقتل ابنه محمد وأخوه يوسف على قبر أبيهما المتوفىَّا فى سابع موته ، وصار بنو محق ؟ تحت حكم القاتل محمد .

وفيها ملك محمد بن عبد القوي ونشريس وجبالها وبرشك وشرشال.

وفيها ملك محمد بن منديل المغراوى مدينة مليانـة وكثيراً مـن أعمال الشرق .

وفيها أعطا ابن الأحمر للفنش حصن السريق .

وفيها أعطا ابن محفوظ للفنش حصن اللقوة وجبل العيون ووادى آنه وشنتل والحصين وشلطيش أعطاه هاذه البلاد كلها صلحاً عـلى لبلـة وأحوازهـا .

وفيها نزلت الأفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر فى ربيع الأول ، وكان فيها فخر الدين فى جيوش كثيرة ، فلما طال عليه الحصار والرمي بالمجانيق خرج منها وخرج معه أهل المدينة فدخلها الأفرنج ، وكان الملك الصالح على المنصورة ، فلما وصل إليه أهلها شنق منهم ستين رجلا من أعيانهم ثم زحف إلى لقاء الأفرنج وملكهم الفرنسيس فلما تقارب الجمعان تُوفي الملك الصالح أيوب بن محمد الكامل صاحب مصر وكان ولده المعظم بدمشق ، فكَتمت جاريته أم الخليل المسماة بشجرة الدر موتَه وألبستْه ثيابه وجعلتْه فى هودج وجعلتْ خلفَه مَن يمسكه وأمرت الجيش بقتال العدو ولقائه ، فنصر الله المسلمين وهزم الافرنج وأخذ ملكهم أسيراً وقتل من الافرنج ما يزيد على مئة ألف واسترجع دمياط .

السنة الثامنة والأربعون وستمئة

فيها شد الأمير أبو بكر فى حصار فاس وقتالها وقطع عنها الوادي الداخل إليها وجلب أهل مكناسة والقبائل إلى قتالها ، فضاق حال العامَة فأقبلوا على أشياخهم بالملامة وراودوهم على فتح المدينة للأمير أبى بكر فلما رأا الأشياخ ذالك سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا فى فعلهم ونكثهم ، إذ لم يأتهم ناصر من قبل الموحدين ، ورأوا أنهم لابد لهم من بنى مريـن ، فبعثوا الى الأمير أبى بكر يطلبون منه العفو والأمان ، والصفح والامتنان ،

فأجابهم الى ذالك وفتحوا أبواب المدينة ، فدخلها ونزل بالقصر من قصبتها ، وذالك فى اليوم الموفى عشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين المذكورة ، فأقام بها أياماً الى الخامس من رجب التالى لجمادا المذكورة ، وجعل المشرف والأشياخ يسوّفونه بالمال الذى أخذوه من القصر ويلوذون لـه بالأعذار ، فلما رأا ذالك منهم قبض عـلى أشياخ المدينة وأشرافهـا وأمنائها وثقّفهم بدار الجوزة وطالبهم بماله وأثاثه والسلاح التى انتهبوها من خزائن قصره ، فقام اليه شيخ منهم يعرف بابن الحنا فقال له يامولاي : إنما فعل ذالك منا ستة من الأشياخ فلا تواخذنا بما فعل السفهاء منا ، وإن فعلت ما أقول لك وقبلت رأيى لكان حزماً وصواباً وأدباً لرعيتك ، قال : وما تراه أن أصنع أيها الشيخ ؟ قال : تخرج هاؤلاء الأشياخ الستة الذين سعوا فى الفتنة وشقوا عصا المسلمين وكانوا أس الخلاف ورؤساء الضلال وتحزبوا على النفاق إلى السيف فتضرب أعناقهم وتأخذ بثأر مَن قتلوه من رجالك وتشعف بهم مَن سواهم وتأخذنا نحن بغرم مالك عقوبة لمتابعتنا إياهم ، قـال : صدقت والله وأبصرت الرأي ووافقت الغرض ، فأخرج الأشياخ الستة إلى خارج باب الشريعة من أبواب فاس فضُربت أعناقهم ، وهم : القاضى أبو عبد الرحمن المغيلى ، وولده ، والمشرف ابن جشار ، وولده ، وابن أبى طاطو ، وأخوه ، ونهب دورهم واستخربت رباعهم وأملاكهم ، وكان قتل الأشياخ المذكورين يوم الأحد الثانى من شهر رجب من سنة ثمانية وأربعين وستمئة ، وأخـذ سائر الأمناء والأشياخ بغرم المال ، فذلوا ، ولم يكن بعدها منهم مَن يرفع رأسه الى فوقه ولا يتكلم بين اثنين إلى الآن .

وفى أول سنة ثمانية وأربعين أدخلت أم الخليل جارية الملك الصالح الفرنسيس ملك الافرنج إلى القاهرة أسيراً فى قفص من حديد على جمل ليراه الناس ومعه ستة آلاف من قواد الافرنج ورؤسائهم يقادون فى السلاسل .

وفيها مات الملك المعظم ابن الملك الصالح ، وكان أميراً عـلى الشام ، فلما وصله موت أبيه بويع وفرق الأموال وخرج من دمشق يريد

مصر فمات فى الطريق قبل أن يصلها مسموماً ، وبقيت الجارية أم الخليل تقوم بملك مصر والشام بقية سنة ثمان وأربعين وثلاثة أشهر من سنة تسع وأربعين والأوامر تخرج باسمها عن أمر الحجاب الرفيع والستر المنيع شجرة الدر ، فلما كان فى شهر ربيع الثانى من سنة تسع وأربعين اجتمع فقهاء مصر والشام وأمراؤها فدخلوا عليها وقالوا لها أيتها السيدة إن الاسلام لا يصلح أن تملك أمره امرأة فاختارى مَن شئت من الأمراء وتزوَّجيه ونبايعه نحن ويكون الملك فى أيديكم لا يخرج عنكم ، فأتت معهم فاختارت عز الدين الصالحى مملوك الصالح فدعا ورثة الصالح فأعتقوه وبويع وتزوج أم الخليل ، وذالك فى سنة تسع وأربعين وستمئة .

وفيها أعطا الوزير أبو خالد صاحب شريش للفنش مدينة أركوش وحصن فريس ، وحصن تنكر والأقواس .

وفيها دخل الروم مدينة تنس من بلاد مصر بالسيف ، واستشهد فيها من المسلمين خلق" كثير ، وذالك يوم الأربعاء الرابع من شهر محرم .

وفيها ملك العدو قرمونة ، والقلعة ، والقليعة ، وشلوقة ، وغليانة ، وروطة وجميع حصون الوادى ، وحصن الفرج .

وفيها تُوفي نور الدين ملك اليمن قتله مماليكه .

وفيها تُوفي الملك الفاضل صاحب الموصل والجزيرة .

السنة التاسعة والأربعون وستمئة

فيها ملك الأمير أبو بكر جميع بلاد فازاز الى رباط الفتح ، وطلب من أهل سلا أن يمكنوه من البلد ، فاتصل الخبر بالمرتضا فبعث له جيشاً من الموحدين والعرب والروم فالتقوا بالأمير أبى بكر بمقربة من مكناسة الزيتون فهزمهم الأمير أبو بكر وسبا محلتهم .

وفيها كسفت الشمس كسوفاً لم تجر به العادة .

وفيها ملك الروم مدينة الأريولة وأحوازها .

وفيها تُوفي الشيخ الصالح أبو عمران الجنيارى .

وفيها ملك يوسف بن محمد طنجة .

وفيها بنا العزفى بسبتة سوراً بجانب المنارة ، وقيل بل كان ذالك في سنة ثمان وأربعين وهو أصح .

وفى سنة تسع وأربعين المذكورة حاصر الأمير أبو بكر لعلي بن زيان الونجاسنى بتابركشت من بلاد بنى يازغة من أحواز فاس .

السنة الموفية خمسين وستمئة

فيها وصل التطر إلى الجزيرة ونهبوا ديار بكر ومدينة رأس العين وبروج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وفى أول محرم منها كانت وقعة مان ملولين .

السنة الحادية والخمسون وستمئة

فيها خرج الأمير أبو بكر يغير على بلاد يغمراسن ، فوصل إلى وجدة ففرّ يغمراسن أمامه ولم يلقَه فرجع عنه دون قتال .

وفى آخرها تُوفي علي بن عثمان بن عبد الحق أمر عليه عمه أبو الحسن وولده مفتاحاً المُكنّا بأبى حديد فقتله بأمان ملولين .

السنة الثانية والخمسون وستمئة

فيها تُوفي الشيخ الصالح أبو محمد الفشتالى ليلة الخميس الثالث من ذى الحجة منها .

وفيها أراد الروم الذين كانوا يركبون مع يغمراسن الغدر به فقتلوا

أخاه محمد بن زيان بخارج باب كشوط من أبواب تلمسان فأجال يغمراسن فيهم السيف فقتلوا عن آخرهم .

وفيها ظهرت نار باليمن فى بعض جبال عدن يطير منها شرارها إلى البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم بالنهار ، فما شكّ الناس أنها النار التى أخبر النبيء صلا الله عليه وسلم أن ناراً باليمن تظهر فى آخر الزمان فتاب الناس وأقلعوا عن المعاصى وصلح حالهم .

وفيها توفي الأمير أبو سعيد فرج بن محمد بن يوسف بن نصر وكان ولي عهد أبيه .

السنة الثالثة والخمسون وستمئة

فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر محرم منها توفي الخطيب الامام بجامع القرويين أبو الحسن بن الحاج ، وخلفه فى الامامة محمد بن يوسف المزدغى ، وفى الخطبة عبد الرحمن بن محمد المزدغى المذكور .

وفيها تحرك أمير المومنين المرتضا بن السيد إسحاق من مراكش برسم مدينة فاس ولقاء الأمير أبى بكر فاتا حتى نزل بجبل بنى بهليل من أحواز فاس ، فخرج إليه الأمير أبو بكر من فاس فهزمه واحتوا على جميع ما كان فى محلته من الأموال والأخبية والقباب والخيل والابل والعدد والخون ، وأصابت مرين فى هاذه الصفقة أموالا جليلة وذالك فى سادس جمادا الآخرة منها .

وفيها قتل القائد محمد الرنداجى بوادى إشبيلية .

وفيها بايعت سجلماسة الأمير أبا بكر بن عبد الحق فملكها وولاّ عليها عبد السلام الأوزى وداود بن يوسف ، وولاّ قائداً بها يوسف بن يرجاسن ، فبقي الأمر كذالك سنة ونصفاً ثم وليها الوزير يحيا بن أبى منديل شهرين ثم وليها أبو طالب بن الحسين فقتل وقام بها أهلها .

السنة الرابعة والخمسون وستمئة

فيها ذكر للأمير أبى بكر أن ابن عطوش تحرك من مراكش لسجلماسة وكان قد بعث إليها ولده أبا حديد حين قتل عامله أبو طالب فأسرا لها ودخلها وهرب ابن عطوش القادم لها ، وفى هاذه الحركة مات سعيد بن عثمان الفودودى .

وفى هاذه السنة بنا الفقيه العزفى الجُبْ بأسفل المينا من سبتة .

وفيها توفي الرئيس إسماعيل بن يوسف بن نصر أخو ابن الأحمر .

وفيها ولي الرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة مالقة .

السنة الخامسة والخمسون وستمئة

فيها توفي الشيخ الصالح الورع المبارك محمد بن يوسف بن عمران المزدغى الخطيب بجامع القرويين وسيد علماء زمانه ، يكنى أبا عبد الله ، أخذ ببلده عن أبى ذر الخشنى ، وعبد العزيز بن زيدان ، ولقي بتلمسان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى فأخذ عنه وأجاز له ، ورحل إلى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جملة من أشياخها ، وكان عالماً بالنحو واللغة والبديع ، ذاكراً للتاريخ والآداب ، كان ينص كتاب زهر الآداب وكتاب الأمالى ومقامات الحريرى والسير ينص ذالك نصاً ، واقتصر على إقراء الحديث والتفسير ، فكان إماماً فى تفسير القرآن ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك الذى بيده الملك ، ومات رحمه الله ولم يتمه ، وهو من أبدع التفاسير وأجلّها ، ولـه تواليف مفيدة فى فنون شتى منها كتاب ما يجور للفقراء المضطرين فى أموال الأغنياء المغترين، وما يجب فى ذالك على الولاة الآمرين وعلى جميع المسلمين، ومنها تأليف فى قوله عليه السلام : إذا نزل الوباء بأرض فلا تخرجوا منه فراراً ، ومنها أرجوزة فى علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها .

الحمد لله العلـي الأعـــلا	رب العوالى والعلا والسفـلا
وملك الدنيا ويوم الديـــن	ومبدع الخلـق بـلا معيـن
أحمده حمداً يُوازى فضلَــهُ	فليس شيء فى الوجود مثله

تُوفي رحمه الله فى الرابع من ربيع الأول من سنة خمس وخمسين المذكورة وقد بلغ من السن اثنتين وثمانين سنة .

وفيها ولي الفقيه الصالح الزاهد الورع علي بن أحمد الامامة بجامع القرويين وبقي الفقيه الصالح الزاهد الورع عبد الرحمان ابن الفقيه محمد المزدغى خطيباً من تقديم والده رحمهم الله تعالا .

وفيها تُوفي خطيب مكناسة وإمام جامعها الحاج الصالح المجاهد أبو علي منصور بن حرزوز .

وفيها ولاَّ الأمير أبو بكر بن عبد الحق مولاه فرتون .

وفيها تحرك الأمير أبو بكر إلى يغمراسن ، فهزمه أبو بكر بموضع يعرف بأبى سليط ، ثم رجع عنه فوصل الى المقرمدة ، فذكر له أن يغمراسن مضا إلى سجلماسة فطلع أبو بكر إلى سجلماسة فدخلها قبله وخرج من الغد فتقاتل معه بخارجها أياماً ورجع يغمراسن إلى تلمسان .

وفيها ملك الأمير أبو بكر بلاد درعة ، وكانت للمرتضا ، وأقام الأمير أبو بكر بسجلماسة ودرعة حتى هدنهما وسكنهما وأصلح أحوالهما ، وقدم عليها عامله أبا يحيا القطرانى وأوصاه بما أراد وارتحل الى مدينة فاس فدخلها وقد عظم ملكه وارتفع سلطانه وكثر حشمه وجنده وخافته الملوك وانقمع أهل العناد والفساد ، وتأمنت الطرقات والبلاد ، وكثرت العمارات ، وفني أهل الدعـارات .

وفيها تُوفي سليمان بن عثمان بن عبد الحق .

وفيها رجع الأمير أبو بكر من سجلماسة الى فاس ، فأقام بها أياماً ثم خرج الى جهة رباط الفتح فوصل الى خميس فنزارة (12) ثم رجع الى فاس فأقام بها أياماً ، ورجع الى سجلماسة برسم غزو العرب ، فرجع منها مريضاً ولم يزل به مرضه ذالك الى أن مات .

---

12) قرية الخميسات الحالية .

وفيها ولد الأمير محمد بن محمد بن يوسف بن نصر المخلوع عن ملك غرناطة .

السنة السادسة والخمسون وستمئة

فيها تُوفي الأمير أبو بكر بن عبد الحق حتف أنفه بقصره من قصبة فاس ، مرض بها ثمانية عشر يوماً ، وتوفي يوم الخميس منسلخ جمادا الأخرا منها ، وصُلي على جنازته صبح يوم الجمعة مهل رجب بجامع الأندلس ، ودفن بباب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بازاء قبر الشيخ الفقيه الصالح أبى محمد الفشتالى تبركاً بجواره رحمه الله تعالا ، كان أوصا بذالك فى حياته ، فكانت أيام ملكه بالمغرب من يوم بويع بعد وفاة أخيه محمد ثلاث عشرة سنة ، ومن يوم ملك فاس بعد وفاة السعيد الى أن توفي تسعة أعوام وتسعة أشهر .

وفيها قام أبو يحيا القطراني بسجلماسة بالدعوة لنفسه حين سمع بموت أبى بكر بن عبد الحق ، فأقام والياً عليها سنتين ثم قُتل .

وفى سنة ست وخمسين المذكورة ، وفى يوم السبت منسلخ ربيع الأول دخل التطر بغداد ومُلِيء بهم جميع العراق ، وكان به الحادثُ الأعظم ، وقتل أمير المومنين عبد الله المعتصم بالله العباسى وبموته ختمت الدولة العباسية بعد أن كان لها خمسمئة سنة وثمان وعشرون سنة والبقاء لله وحده .

وفى يوم السبت آخر يوم من السنة المذكورة توفي الشيخ الصالح أبو موسا بن أبى الربيع .

وفيها بويع عمر بن أبى بكر بفاس ، وبقي أربعة أشهر أولها رجب وأمره مضطرب فاقبل إليه عمه من رباط تازة فهزمه على وادى مكس .

وفيها بويع أمين المسلمين يعقوب بن عبد الحق وملك مدينة فاس ورباط تازة وأعطا مكناسة لابن أخيه عمر بن أبى بكر .

وفيها تُوفي الفقيه الورع أبو محمد صالح الهسكورى رحمه الله تعالا ونفع به آمين .

الباب السادس

فى ذكر دولة أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق

هو أمير المسلمين ، وناصر الدين ، عبد الله ، يعقوب ابن الأمير الصالح المبارك عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزير بن فجوس بن جرماط بن مرين الزناتى المرينى الحمامى، أمه حرة زاكية مباركة أم اليمن بنت محلى البطوئى الزناتى ، كانت من عقلاء النساء ، رأت فى منامها وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها فعلا وصعد حتى استوا فى السماء وأشرق نوره على الأرض ، فقصت رؤياها على والدها فسار إلى الشيخ الصالح أبى عثمان الورياكلي فقص عليه رؤياها ، فقال له إن صدقت رؤيا هاذه الجارية فانها تلد ملكاً عظيماً مباركاً فاضلا يعم المسلمين خيره وتشملهم بركته فكان كذالك .

ولما تزوجها الأمير عبد الحق قال له والدها محلى بارك الله لك فيها ، أما والله إنها ناصية" مسعودة" مباركة" لم تزل الخيرات والنعم تتوالا علينا مذ نشأت" فى بيتنا ، وإنك لتعرف بركتها ، وستلد لك ملكاً عظيماً يكون عزاً وفخراً لك ولقومك إلى آخر الدهر كما قيل فيه :

هو الملك المنصور أمَّا زمانه فروح وأما بطشه فسموم

يطارد جيش النصر قبل طراده ويسكن جيش الدهر حين يقوم

وتعنو له الأملاك شرقاً ومغرباً وكلٌ على جدوا يديه يحوم

مولده رحمه الله فى سنة سبع وستمئة قاله أبو العباس بن الجبر عما أخبرته به الحاجة أم اليمن والدته ، وقيل مولده فى سنة تسع وستمئة .

لقبه القائم بالحق والمنصور .

صفته رحمه الله أبيض اللون ، تام القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه والصورة ، واسع المنكبين ، أشيب كأن لحيته قطعة ثلج من بياضها

ونورها وإشراقها ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، موثر للفقر ، حليم شفيق متواضع لأهل الفضل والدين، كريم جواد ذوحزم وعزم ودين متين، وسياسة للرعية وسعد مصاحب له مظفر منصور الراية ميمون النقيبة لم تنهزم له قط راية ولم ينكسر له جيش ، لم يغزُ قط عدواً إلا قهره ، ولا لاقا جيشاً إلا هزمه ودثره ، ولا قصد بلداً إلا فتحه ، ولا حاول أمراً الا مُنِحه ، كما قيل فيه :

هو الامـام العـدل والمُقتَـــدا ... بفعلـه مسترشـــداً مرشـــدا
وســادة الدهـــر يعدونـــــه ... أجودهـم أصدقهـم موعـــدا
أقدرهـم أحرسهـم ذمـــة ... أحمدهـم أسعدهـم مـولـــدا

وكان رحمه الله مع ذالك صواماً قواماً دائم الذكر كثير البر لا يزال فى اكثر نهاره ذاكراً وفى ليله قائماً سبحته فى يده لا تزال مادام فى أوقاته مكرماً للصلحاء والمساكين ، متواضعاً فى ذات الله تعالا لأهل الدين ، قاهراً للطغاة المفسدين ، متوقفاً فى سفك الدماء .

قضـاتـه :

بحضرة فاس الفقيه الحافظ القاضى الفاضل المبارك أبو الحسن بن أحمد المعروف فى بيته بابن عِذار من أعيان فاس وأشرافها ، ثم الفقيه العالم المحدث أبو جعفر المزدغى ، ثم الفقيه العالم المحدث أبو الحسن بن القاضى أبى عبد الرحمان المغيلى ، ثم الفقيه الصالح الورع أبو عبد الله بن عمران ، ثم الفقيه القاضى أبو أمية الدلائى ، ثم الفقيه يوسف بن حكم البلنسى .

وقضاته بحضرة مراكش الفقيه العالم المجتهد أبو عبد الله الشريف ، وكان أحد حفاظ المغرب فى زمانه ، وكان مشاركاً فى جميع العلوم الدينية ، ثم الفقيه عبد العزيز العمرانى .

حـاجبـه :

عتيق مـولاه .

وزراؤه :

الشيخ المبارك الوزير المرحوم يحيا بن حازم العلوى ، والشيخ الأجل أبو علي يحيا بن أبى منديل العسكرى ، والشيخ الوزير المجاهد المرحوم أبو سالم فتح الله السدراتى .

كتابه :

الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن الربيب ، والفقيه أبو عبد الله العمرانى ، وكتب له فى آخر عمره حين وفاته أبو عبد الله بن الربيب ، والفقيه الفاضل المبارك أبو محمد عبد الله بن أبى بكر .

عماله على بلاده :

محمد بن علي بمراكش وأعمالها وجميع بلاد السوس ، وعلى أغمات وتينمل وجبالها الفقيه أبو علي المليانى ، وعلى مدينة سلا وأحوازها ومراسيها علي بن عمران البرنيانى المعروف بابن عيلة ، وعلى مدينة مكناسة وأحوازها علي بن الأزرق ، وعلى مدينة فاس أبو عبد الله الحدودى ، وعلى رباط تازة وجميع أحوازها أبو سالم بن الأشقر التسولى ، وعلى مدينة سجلماسة عبد الرحمن بن مردنيس ، وعلى بلاد درعة وأحوازها يوسف بن علي اليابانى ، وعلى بلاد الأندلس علي بن يوسف بن يزجاسن .

بويع له بالخلافة رحمه الله بحضرة فاس بعد وفاة أخيه أبى بكر بثمانية أيام ، وذالك فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة ست وخمسين وستمئة وسنه يومئذ ست وأربعون سنة .

خلافتُه أزرت بكلُّ خلافةٍ — كذالك بطلان الخلاف مع النقص
لديه استقرت فى نصاب ونصبة — وللشرف المحض ابتغاء على المحص
تناها اليه الحلم والدين فانتشت — تسير بعلياه ثناء ولا تحصى
إمام يطيعُ اللهَ مَن قد أطاعه — ويعصِى حدود الله مَن أمرَه يعصى

وكان حين مات أخوه أبو بكر غائباً عن مدينة فاس برباط تازة فاتصل الخبر به فاقبل الى مدينة فاس ليعزي ابن أخيه عمر ، وينظر فى أمر

الدولة ، فلما وصل إلى فاس وجد ابن أخيه عمر قد دعا الناس إلى بيعته ، فبايعه الحشم والأجناد وجماعة من بنى مرين وتوقف أكثر أشياخ مرين عن بيعته فعزاه عن أبيه ونزل بالقصر فأتته طائفة من بنى مرين فعزوه عن أخيه وبايعوه وقالوا له أنت أحق بالملك من ابن أخيك وأحق بهاذا المقام لعقلك وفضلك ودينك ، فاتصل الخبر بمن كان قد بايع ابن أخيه عمر من الحشم والأجناد فاقبلوا إلى عمر بن أبى بكر وأغروه بقتل عمه وقالوا له : لا يصفو لك الأمر إلا إذا قتلت يعقوب فان الناس إنما هم متشوقون إليه فاقتله قبل أن يتمكن أمره وهو الآن فى يدك وأنت قادر عليه فأراد أن يقبض عليه فيقتله فأشعر عمه بذالك فخرج من القصر فاراً ، فوجد الأبواب قد سدت دونه ، فلجأ إلى برج بالقصبة المذكورة فتمنع به مع جماعة من حشمه وعبيده ، فأقام فيه محصوراً إلى أن دخل الناس والأشياخ بينهما فى الصلح فاصطلحا على أن سلم له عمر ابن أخيه فى رباط تازة وبلاد ملوية وبلاد الريف ، وسلم هو فيما سوى ذالك من البلاد فرجع يعقوب إلى رباط تازة وأقام عمر بفاس ، فلما وصل يعقوب إلى تازة واستقر بها أتاه رؤساء مرين وأشياخهم فبايعوه على الموت بين يديه وقالوا له : والله لا نبايع عمر ابن أخيك ولا نرضا به أميراً وأنت بقيد الحياة ، فبايعه كافة أولاد عبد الحق ثم بايعه بنو علي ثم بنو عسكر ، وبنو ينجاسن وبنو وطاس ، ثم تتابعت قبائل بنى مرين بالبيعة فان بنى مرين كانوا ناظرين لما يفعل أولاد عبد الحق إذ الرياسة والامارة لهم :

ان الكرام بنى مرين كلها ورثوا العلا والمجد أوحد أوحدا
قسموا المعالي بالسواء وفضلوا أولاد عبد الحق أكرم أسعدا

فلما بايعه أشياخ مرين وكافة قبائلهم زحف بهم إلى لقاء ابن أخيه عمر ، فخرج عمر إلى قتاله فى جيش من الروم والحشم والأغزاز والعبيد والأجناد وقبائل من بنى مرين ، فالتقا الجمعان بمقربة من وادى مكس فكانت بينهم حروب يسيرة هزم فيها عمر بن أبى بكر واستمرت عليه الهزيمة من وادى مكس إلى مدشر دودة من أحواز فاس وقتل أكثر من كان فى عسكره من الروم والأجناد ودخل الصلحاء والأشياخ بينهما فى الصلح فاصطلحا أيضاً على أن

بايع عمر عمه وتخلا له عن الملك على أن أعطاه عمه مدينة مكناسة وأحوازها ، فسار عمر إليها واستبد أمير المسلمين بالملك ، وجددت له البيعة بمدينة فاس فبويع فيها وذالك فى شوال من سنة ست وخمسين المذكورة .

سنة سبع وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمئة ، فيها قتل عمر بن أبى بكر ثلاثة عشر شيخاً من أشياخ مكناسة على يد عمر بن عائشة وذالك فى شهر رمضان من السنة المذكورة .

وفيها أقبل يغمراسن بن زيان إلى رباط تازة فوصل إلى جلد أمان ومعه قبائل مغراوة ، وتجين ، فخرج إليه أمير المسلمين يعقوب من فاس فهزمه وفرّ يغمراسن أمامه إلى تلمسان وأحرق تافرسيت .

وفيها بنا عمر بن أبى بكر قصبة مكناسة وبنا لها الستارة الدائرة بالسور .

وفيها توفي السيد أبو إسحاق أخو المرتضى .

وفيها أسس يوسف بن علي العرائش .

وفيها كان الرخاء العظيم فى المغرب فلم يزل كذالك مدة خمس عشرة سنة ، ستة دراهم للصحفة (1) الواحدة من القمح .

سنة ثمان وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمئة فى أول محرم منها قتل عمر بن أبى بكر على ساقية غبولة ، قتله بنو عمه عمر بن عثمان وإبراهيم بن عثمان والعباس بن محمد بن عبد الحق غدراً فى دم كان بينهم ، فكانت مدة حياته بعد أخيه سنة ونصف .

وفيها رجعت مكناسة إلى أمير المسلمين يعقوب واجتمع عليه جميع مرين وانتظمت بلاد المغرب فى طاعته وجددت له البيعة بعد وفاة عمر

(1) الصحفة ستون مداً فى الاصلاح المغربى القديم الذى مازال متعارفا عند الفلاحين الى الآن .

ففتح البلاد من بلاد نول من السوس الأقصا إلى تلمسان ، وفتح حضرة مراكش دار مملكة المرتضا وقرار سلطانه ، وقطع مملكة بنى عبد المومن ومحا آثارهم ولم يبق منها رسماً على ضخامتها بعد ان كان لها بالمغرب مئة سنة واثنتان وخمسون سنة من سنة خمس عشرة وخمسمئة الى سنة ثمان وستين وستمئة وفتح مدينة طنجة ، ومدينة سجلماسة ، وبلاد درعة ، وبلاد سوس الأقصا ، وبلاد الريف ، وصالح أهل سبتة على أن بايعوه على مال معلوم يؤدونه له فى كل سنــة .

فلما تم له ملك بلاد المغرب سمت همته العلية إلى الجهاد فجاز إلى الأندلس فغزا بلاد الروم ودوخها وملك بالأندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون ، وأما القرا والبروج فما يزيد على ثلاثمئة قرية ، فمن المدن التى ملكها : الجزيرة الخضراء ، وطريفة ، ومالقة ، وقمارش ، ورنــدة ، والمنكب ، ومربالة ، ومرتانة ، وجبل الفتح ، وما بين ذالك مــن الحصون والقرا والبروج ، وخطب له على جميع بلاد المغرب من بلاد السوس إلى بحر الريف وعلى أكثر منابر الأندلس ، وهو أول من تسمَّا بأمير المسلمين من ملوك بنى مرين ، تسمَّا به حين ملك حضرة مراكش وقطع دولة الموحدين .

وبنا فى أيام ملكه مدينتيْن حصينتيْن إحداهما المدينة السعيدة فاس الجديدة ، واتخذها دار ملكه وهي الآن دار ملك ولده من بعده ، والمدينة الثانية بناها أيضاً لسكناه بخارج الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس عــلى ساحل بحر الزقاق، فكان يسكنها هو وقرابته ووزراؤه وحشمه إذا جاز إلىالجهاد لأن لا يُضيِّقَ على أهل الجزيرة فى سكناهم ، وبنا فى المدينتيْن الجوامع والصوامع والقصور والحمامات والأسواق ، وبنا القناطر بالطرقات مثل قنطرة وادى النجا وقنطرة مارين وغيرها .

وهو أول ملك من بنى مرين حما حِمَا الاسلام وكسر الأصنام ، وغزا أهل الكفر والطغيان وشتت عبدة الأصنام ، وملك العدوتيْن ، واحتوا على ملك الحضرتَين ، وجاهد الروم فدوخ بلادهم ، وقهر ملوكهم ، فأعزَّ الله تعالا به الدين ورفع ببركة خلافته منارَ المسلمين ، وكانت الروم قبل جوازه إلى

الأندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الأندلس وأكثر مدنها وحصونها مثل قرطبة وإشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغير ذالك من بلاد الاسلام ، ولم تنشر بها للمسلمين راية من وقعة العقاب التى كانت فى سنة تسع وستمئة إلى أن جازت رايته المنصورة حين جاز إلى الجهاد فى سنة أربع وسبعين وستمئة فكانت له الغزوات المشهورة ، والمآثر المأثورة ، والفضائل المذكورة، والسيَّر المحمودة، والمواقفُ المشهودة، مع ما اتَّصف به رحمه الله ورضي عنه من الفضل والدين ، والعدل والرفق بالمسلمين ، وكان رحمه الله منصوراً على من ناوأه ، مؤيداً على من عاده ، لم ينهزم له قط راية ولم يزل مواظبا على الجهاد والسنن القويم حتى أتاه اليقين ، كما قيل فيه رحمه الله :

أقام على الأيام سنة جوده ... فجادت وكانت لا يدر لنا خلف

وألزم هاذا الدهر سيرةَ عدله ... فليس له خطب يجوز ولا صرف

ضحوك إذا الأبطال طال عبوسهم ... وقور إذا الأبطال من وجل خفُّوا

يحوط جناب الثغر حوطة حازم ... تجمع فى تدبيره الرفق والعنف

ويرصدُ للخطب المُلِمِّ سياسة ... يذل بها عز ويقوا بها ضعف

له المكرمات اللاء عن حصر بعضها ... تقاصرت الأقلامُ والحبر والصحْف

وهو الذى صنع المارستانات فى بلاد المرتضا للغرباء والمجانين وأجرا عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون اليه من الأغذية وما يشتهونه من الفواكه والطرف وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم فى أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم وأجرا على الكل الانفاق من جزية اليهود لعنهم الله وأجرا للخدماء والفقراء مالا معلوماً يأخذونه فى كل شهر من جزية اليهود وبنا المدارس بفاس ومراكش ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم وأجرا لهم المرتبات فى كل شهر وأقام الدين وأمر بتطهير الأيتام وكسوتهم والاحسان إليهم بالدراهم والطعام فى كل عاشوراء ، وبنا الزوايا فى الفلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لاطعام عابرى سبيل وذى الحاجات ، وأخرج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس عنها وبنا لهم حظيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها ورفع أذاهم عن الناس ، كل ذلك ابتغاء ثواب الله عز وجل ورجاء مغفرته نفعه الله بذالك .

الخبر عن سيره الجميلة ومآثره الجليلة

أذكرها مختصرة وجيزة من نظم صاحب الارجوزة :

سيرة يعقوب بن عبد الحق — قد حاز فيها قصبات السبق
سيرته أن يقرأ الكتابا — ويذكر العلوم والآدابا
يقوم للصلاة ثلث الليل — وماله عن ورده من ميل
حتى إذا ما الصبح لاح وانصدع — قام وصلاّ للاله وركع
وضجّ بالتسبيح والتقديس — حتى يتم الحزب فى التغليس
يقرأ أولا كتاب السير — والقصص اللاتى بكل خبر
ثم فتوح الشام باجتهاد — وبعده المعروف بالأنجاد
سؤاله يعجز عنه الطلبه — ومَن لديه من أجلّ الكتبه
يقعد للكتب إلى وقت الضحا — ثم يُصليها كفعل الصلحا
ويأمر الكتاب بالأوامر — فى باطن من أمره وظاهر
ويدخل الأشياخ من مرين — للرأي والتدبير والتبيين
مجلسه ليس به فجور — ولا فتا عن قوله يجور
كأنهم مثل النجوم الزهر — وبينهم يعقوب مثل البدر
قد ألبس الوقار والسكينه — وحلّ فى مكانة مكينه
حتى إذا ما جاء وقت الظهر — قام إلى بيت الندا والفخر
يبقا إلى وقت صلاة العصر — يأتى لتقييد النهْي والأمر
فينصف المظلوم ممَّن ظلمه — ولم يزل إلى صلاة العَتَمه
ثم يؤمّ بيته الكريما — ويترك الوزير والخديما
ثم ينام تارة وتاره — يدبر الأمور والاداره
ولن ينام الليل إلا ساهرا — ينوى الجهاد باطناً وظاهرا
ورأيه يصحبُه التمكين — مبارك طالعه ميمون
فأمن الغرب من الفساد — ونشر العدل على البلاد
ولم يدع فى الغرب مَن يجور — وزالت الأهوال والفجور

وخضعت مريـن تحت قهـــــره	وأذعنـوا لنهْيِـه وأمــــــره
ورفـع الظلـم عـن الرعيـــــه	وقمع الطغـاةَ في البريـــــه
فما سمعتـم مثلَ هاذى السيـره	وهذه المآثـر الأثيـــــــره
فذاك كان فعلـه قديمـــــا	بذا نـال الملك والتعظيمــــا

وفى سنة ثمان وخمسين المذكورة خرج أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق من فاس الى رباط تازة ليشتشرف منها على أخبار يغمراسن بن زيان.

وفيها قتل السبع الفارس بن زيان أخا يغمراسن.

وفيها قتل أبو يحيا القطرانى بسجماسة وزحف منها الى المرتضا.

وفيها سار أولاد أبى بكر بن عبد الحق: إبراهيم وأبو مظهر وإخوتهم الى بلاد غمارة غاضبين على أمير المسلمين يعقوب ومُنافرين له، فصالحوا يوسف بن الأمير صاحب طنجة على أن له المدينة الحاضرة ولهم البادية من أحوازها فأقاموا هنالك فى بنى لحيم.

فيها سار يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق عن عمه أمير المسلمين منافراً إلى بلاد تامسنا ليستوطنها برسم الرعي والصيد بزعمه، فتحاول إلى غبولة، نزل بدواره بها وأقام يريد الحيلة فى دخول سلا وملكها، وكان والى سلا للمرتضا فى تلك السنة أبو عبد الله بن أبى يعلا الموحد، فدخل عليه يعقوب ابن عبد الله المذكور رباط الفتح بالحيلة أنه يدخل فيه الحمام فلما حصل بقصبة رباط الفتح قام بها وأخرج عنها ابن أبى يعلا فاراً بالليل وترك ماله وحرمه وسار فى البحر حتى وصل الى أزمور ثم سار الى مراكش، ولما بلغ يعقوب ابن عبد الله مدينة سلا ضبطها لنفسه مضاهياً بها لعمه أمير المسلمين وحدث نفسه بأمور غير ناجحة.

وفى ثانى شوال من سنة ثمان المذكورة غدر الروم مدينة سلا وكان بها الحدث العظيم، فبينما أمير المسلمين يعقوب رحمه الله برباط تازة كيف انصرف من صلاة العصر من اليوم الرابع من شوال المذكور اذ اتصل به الخبر أن النصارى دمرهم الله تعالا دخلوا مدينة سلا غدراً فقتلوا رجالها وسبوا

حريمها وأموالها وتمنعوا بها وأخذوا فى تحصينها ، فركب أمير المسلمين من فوره ذالك وخرج من رباط تازة مبادراً ومسرعاً لاغاثتها واستنقاذهـا مشمراً على ساعده فى أمرها ، وكان خروجه من رباط تازة لاغاثتها بعد أن صلا العصر من اليوم الرابع من شوال فى الوقت الذى اتصل به الخبر فيه فسار فى نحو خمسين فارساً من أعيان مرين بقية يومه وأسرا ليلته تلك ، ومن الغد صلا العصر بظاهرها ، فكان مسيره من رباط تازة إلى سلا فى يوم وليلة ، فنزلها على من بها من الروم وتداركت الجيوش وتلاحقت العساكر والجنود والمطوعة والحشود ، وأتت القبائل من جميع المغرب ، فحاصر الروم بها وضيق عليهم بالقتال ليلا ونهاراً حتى فتحها وفر الروم عنها قهراً بعد أربعة وعشرين يوماً من دخولهم إياها ، فلما خرج النصارا عنها وملكها بنا عليهـا السور الغربى الذى يقابل الوادي من الناحية التى دخلها النصارا منها ، فانها كانت لا سور عليها من تلك الجهة الغربية فبناه رحمه الله من أول دار الصناعة إلى البحر ، وكان يقف ويمكن الصخر إلى الصناع كل ذالك بيده ابتغاء ثواب الله عز وجل وحياطة على المسلمين ، فلم يزل مقيماً بمدينة سلا حتى تم السور بالبناء والتحصين ، ثم خرج إلى مدينة أنفا فملكها وملك جميع بلاد تامسنا وبايع له جميع قبائلها .

وفى هاذه السنة وصلت هدية المرتضا صاحب مراكش الى أمير المسلمين يعقوب صاحب المغرب ومعها رسالة من الصلحاء وسائر الموحدين يطلبون صلحه ومنوادعته ، فصالحه أمير المسلمين على أن جعل الحد بينه وبينه وادي أم الربيع .

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

لما ولي أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ملك المغرب ظهرت سعادته وبركته على البلاد ، فأنزل الله تعالا بها من البركات وأفاض عليهم بيمن أيامه وإقبال دولته الخيرات ، وأدر عليهم أصناف الأرزاق وضروب النعم ، فرأا الناس فيها من الأمن والرخاء والدعة ووفور النعم وتوالى الخصب والاقبـال والبركات ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره ، فكان القمح يباع فى بـلاد

المغرب بسبعة دراهم للصحفة الواحدة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة ، والفول وجميع القطاني ما لها سوم ولا يوجد مَن يشتريها ، والدقيق الطيب بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب ربع (14) بدرهم ، والعَسَل ثلاثة أرطال بدرهم والزيت أربعة أرطال بدرهم ، والسمن رطل ونصف بدرهم ، ولحم البقر مئة أوقيه بدرهم ، والكبش ستة دراهم ، والشابل الطري بقيراط وثلاثة بدرهم ، وكذالك المالح (15)، والملح حمل بدرهم، والزبيب درهم ونصف للربع، والتمر ستة أرطال بدرهم (16) وذالك بفضل الله ورحمته وبركة دولة أمير المسلمين ويُمْن خلافته وحُسْن سيرته في رعيته وجميع المسلمين وصفاء نيته وقلبه لهم.

وفى سنة ثمان وخمسين المذكورة قام علي بن عمر بسجلماسة بدعوة المرتضا وقتل أبا يحيا القطرانى الثائر بها بعد موت الأمير أبى بكر بن عبد الحق فكانت إمارته بها سنتين.

وفيها توفي بفاس الشيخ الصالح أبو العباس بن الصباغ وذالك يوم الثلاثاء السادس من شوال منها.

سنة تسع وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمئة فيها فسد ما بين أمير المسلمين يعقوب والمرتضا ، فسرح أمير المسلمين بجيوشه فى أطراف بلاده.

وفيها كانت وقعة أم الرجلين بين أمير المسلمين يعقوب وجيوش المرتضا من الموحدين والعرب والأغزاز والروم وكان المرتضا قد استنخب هاذا الجيش وقدم عليه يحيا بن عبد الله بن وانودين وأعطاه الطبول والبنود وبعثهم إلى حرب أمير المسلمين ، فالتقوا فى وادى أم الربيع فهزمهم أمير

---

(14) أى ربع قنطار ، وكان من عادة الأغنياء أن يهدوا الى بعضهم البعض فى الولائم الكبش **والربع** أى ربع قنطار من الدقيق.

(15) أى الجاف المملح الذى ييبس بعد صيده ليرسل الى داخلية البلاد فيما بعد ، وقد استمرت صناعة تيبيس الشابل الى أن ظهرت وسائل النقل السريع ووسائل التبريد العصرى فبطلت.

(16) قارن بين هاذا النص والنص الوارد فى **القرطاس** ص 210.

المسلمين يعقوب وأفنا جموعهم وأبطالهم فى الوادى وبه جزيرات مرتفعات ينقسم الوادى بينها فسميت الوقعة وقعة أم الرجلين وفر الباقون وتركوا محلتهم وأموالهم فاحتوا بنو مرين على ذالك كله ، وكان المرتضا قد استعد لهاذه الغزوة غاية الاستعداد وبعث فيها وجوه الموحدين وأشياخهم من سفيان والخلط والأنبج وبنى جابر وبنى عاصم وقواد الروم والأغزاز والمصامدة ولم يترك من جيشه إلا نفراً .

وفيها نزل محمد المستنصر صاحب تونس ومغبدون بن فرنده النصرانى فى مدينة مليانة على الفقيه أبى علي الملياني القائم بها فأذاقوها شراً ونصبوا عليها المجانيق حتى دخلوها بالنقب يوم عيد الفطر .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشر من ذى القعدة منها ملك النصارا قصبة شريش .

وفيها أمر أمير المسلمين يعقوب باخراج النصارا من فاس وبنا لهم المرس القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبى العلاء بن أبى طلحة .

وفيها تنصر السويد أبو زيد أخو أبى دبوس باشبيلية ، فحلق الفنش لحينه بيده وكساه حلة ووقفه على رأسه فلما كساه الحلة صعد على كرسي عال يشرف منه على الناس ثم قال أشهدكم يامَن حضر من المسلمين والنصارا واليهود أنى قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة ، وكنت أكتمه وأنا الآن قد أبحته وأظهرته ، وأن دين المسيح بن مريم هو الدين القديم الأزلى فتلكم له الفنش حين غبَّطه النصارا بدينهم .

وفيها ملك أمير المسلمين يعقوب حصن فاروط وبقي الثلج ينزل فى هاذه السنة أربعين يوماً متوالية .

وفيها ضرب المستنصر صاحب إفريقية الخندوس بتونس .

وفيها توفي بمكناسة الفقيه الأستاذ المقرىء الكاتب البارع محمد بن عبدون بن قاسم الخزرجى أديب وقتــه وشاعر عصره فى العشر الأول من ذى القعدة منها .

سنة ستين وستمئة

ثم دخلت سنة ستين وستمئة فيها طلع أمير المسلمين يعقوب إلى سجلماسة فحاصرها ونصب عليها الأكبش ثم ارتحل عنها الى المغرب .

وفيها نافق يعقوب بن محمد بن عبد الحق بجبل علودان فنزل عليه الأمير أبو مالك وعلي بن زيان حتى نزل بالأمان .

وفيها نافق محمد بن إدريس بقصر كتامة .

وفيها مات السويد أبو زيد المُتنصر باشبيلية بعد أربعة أشهر من تنصره .

وفيها مات عواج العربى بمراكش .

وفيها سار أمير المسلمين يعقوب الى مراكش فنزل بجبل كليز وأقام به ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع من نزوله ركب فى جميع جيوشه المنصورة ثم أقبل حتى نزل على باب المدينة ، واصطفت جيوشه أمامها وبرز عليها فى أحسن تبريز فانحصر المرتضا بداخلها وغلّق على نفسه أبوابها ، وفى ذلك يقول شاعره عبد العزيز فى رجزه الوجيز :

فى عـام ستمئـة وستيـــــن	سار لمُراكش سلطـانُ مرين
فوقف المنصورُ فى كليـــــز	مُبرزاً فى أحسن التبـريـــــز
وعـاد فيهـا المرتضا محصورا	ذا أرقٍ فى قصره مقصــــورا
ودارت الأعـراب بالأســـــوار	واعتمـدوا فيها عـلى الحصـار

فأخرج له ابن عمه السيد إدريس الملقب بأبى دبوس فكان يقاتله على باب مراكش إلى أن دخلت سنة إحدا وستين والحرب قائمة بينهما مدة شهرين .

السنة الحادية والستون وستمئة

فيها توفي الأمير عبد الله الملقب بالعجب ابن أمير المومنين يعقوب على مراكش ، وكان أفرس مَن ركِب السروجَ فى زمانه ، فلقب بالعجب

لجماله وكرمه وشجاعته ونجدته وعلو همته ، فارتحل أمير المومنين عن مراكش بسبب قتل ولده ، فدخل مدينة فاس فى آخر شهر رجب من سنة إحدا وستين المذكورة .

وفيها كان طلوع النجم أبى الذوائب ، وكان أول ظهوره يوم الثلاثاء الثالث عشر لشعبان المكرم من السنة المذكورة ، بقي يطلع فى كل ليلة وقت السحر نحواً من شهرين .

السنة الثانية والستون وستمئة

فيها جاز المجاهدون من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب إلى الأندلس برسم الجهاد وقائدهم الأنجد محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وأخوه الفارس المجاهد عامر ابن إدريس والحاج المجاهد التاهرتى فجازوا فى جيش عظيم من بنى مرين وقبائل المغرب خيلا ورجالا يزيدون على ثلاثة آلاف بين فارس وراجل ، فعقد لهم أمير المسلمين يعقوب رايتَه المنصورة ، وجهزهم بالخيل والعدد ابتغاءَ ثواب الله عز وجل ، وكتب إلى الفقيه أبى القاسم العزفى صاحب سبتة فى تجويزهم ، وودعهم ودعا لهم وانصرفوا من حضرته ، فجازوا إلى الأندلس ، وهو أول جيش جاز إلى الأندلس من بنى مرين ، والسبب فى جوازهم أن النصارا دمرهم الله تعالا كانوا قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالغارات والسبْي فأبادوا أكثرها وأهلكوا قواعدها فتفجَّع أهل العدوة لحالهم ، فصنع الفقيه الأديب مالك بن المرحل رحمه الله قصيدة يحرض فيها بنى مرين وسائر المسلمين على جهاد الكافرين ونصرة مَن فى بلاد الأندلس من المسلمين المستضعفين ، فانه رحمه الله كان فى تلك السنة بمدينة فاس يكتب للأمير أبى مالك بن أمير المسلمين يعقوب ، فقُرئت القصيدة بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة فبكا الناس عند سماعها وانتدب كثير منهم للجهاد والقصيدة :

استنصر الدين بكم فاقدموا	فانه إن تُسلموه يُسْلَمُ
لا تُسلموا الاسلامَ ياإخوانَنا	وأسرجوا لنصره والجموا
لاذت بكم أندلسٌ ناشدة	برحِم الدين ونعم الرحِمُ

واسترحمتكم فارحموها إنــه ... لا يرحمُ الرحمانُ مَن لا يرحمُ

ما هي إلا قطعة من أرضكم ... وأهلها منكم وأنتم منهمُ

لكنها حُدَّتْ بكلٍّ كافر ... فالبحرُ من حدودها والعجَمُ

لهفاً على أندلس من جنة ... دارت بها من العدا جهنَّم

استخلص الكفار منها مدناً ... لكل ذى دينٍ عليها ندم

قرطبة" هي التى تبكى لها ... مكةُ حزناً والصفا وزمزم

وحمص" وهْي أختُ بغداد وما ... أيامُها إلا الصبا والحلم

إستخلصوها موضعاً فموضعا ... واقتدروا واحتكموا وانتقموا

وقتَّلوا ومثَّلوا وأسروا ... وأثكلوا ويتَّموا وأيَّموا

أيام كان الخوف من أعوانهم ... والجوعُ والفتنةُ وهْي أعظم

حتى إذا لم يبق من حياتها ... إلا ذَماء تدعيه النمم

دعوا العهود واعتدوا وما دروْا ... بأنها بحبلكم تعتصم

ظنوا وكان الظنُّ منهم كاذباً ... أن ليس لله جنود تقدم

ما صدقوا إن وراء البحر مَن ... يغضب للاسلام حينَ يُظلَم

ولا دروا أن لديكم حرمة ... يحفظها شبابكم والهرم

لو عرفوا قبائل العدرة ما ... عدَوْا على جيرانهم واحترموا

اليوم يدرى كل شيطان بها ... أن قد رمتهم بالشعاع الأنجم

تقدمت نجومَهم طليعة" ... من نحوكم أخطاهم التقدم

فانتصفوا للدين من أعدائه ... واقترعوا عليهمُ واقتسموا

وامتلأت أيديهم من السبا ... وأحبستهم نَعَم" ونِعَمُ

يأهل هاذى الأرض ما أخَّركم ... عنهم ؟ وأنتم فى الأمور أحزم

تسابق الناسُ إلى مواطنٍ ... الأجْرُ فيها وافر" والمغنم

فغزوا الكفارَ فى ديارهم ... وعزموا أن يهزِموا فهَزَموا

فمن سيوف فى رؤوس تنحنى ... ومن رماح فى ذراً تحطم

وقامت الحربُ على ساق فما ... زلَّت لأهل الصدق منهم قدم

باعوا من الله الكريم أنفسا ... كريمة ففاض منها الحِكَم

دعاهم الله إلى رحمته ... فاجتمعوا ببابه وازدحموا

مَيِّتُهم قد قَرَّ في رحمتــه — وحيُّهم بين يديه يخــدم
يضرب بالسيف فيُرضى ربَّـنه — وفي رضا الربِّ النعيمُ الأدوم
أخرجه من بيته إيمانُـه — وحبُّه في فعل ما يُقـدم
ما همُّهُ إلا قتـال أمـة — يكبر عيسا قولهم ومريـم
تشرك بالله وتدعـو معـه — خلقاً يصحُّ جسمُه ويسقَـم
وتدعى أن له صاحبـة — وابنـاً ولا صاحبة ولا ابنـم
لم يثنه عن عزمه أهـلٌ ولا — مـال ولا خوف نعيم يعـدم
كيف وعدنٌ تحت ظل سيفـه — والحورُ عن يمينه تسلـم
والله راضٍ عنه والخلقُ لـه — يدعون مهما كبَّروا وأحرموا
إخواننا ماذا القعودُ بعدهـم — أفي ضمان الله من يتهـم
هل هي إلا جنة مضمونـة — أوعودة صاحبهـا مكـرم
خذوا السلاح وانفـروا وسارعوا — إلى الذى من ربكم وُعِدتُـم
إن أمامَ البحـر من إخوانكـم — خلقـاً لهم تلفُّتٌ إليكـم
ونجوكم عيونُهم نـاظـرة — لا تطعـم النوم وكيـف تطعـم
والروم قد همت بهم ومالهـم — سواكم رداً فأيـن الهِمَـم
كلهم ينظر في أطفـالـه — ودمعـه من الحـذار يسجُـم
أين المفـرّ لا مفـرَّ إنمـا — هو الغيـاث أو إسـار أو دم
يارب وفقنـا وألهمْنـا لمـا — فيه لنا الخير فانت المُلهـم
يارب أصلح حالنا وبالنـا — أنت بما فيه الصـلاح أعلـم
ياربِّ وانصرنـا على أعدائنـا — يارب واعصمنـا فأنت تعصـم
ياربنا ماداؤنـا شيء سـوى — ذنوبنا فارحـم فأنت ترحـم

وفي هذه السنة نزل الفنش لعنه الله على مدينة غرناطة فأقام عليها أياماً وأقلع عنها خائباً خاسراً .

وفيها نازل عامر بن إدريس بن عبد الحق مدينة شريش فدخل ربضها بالسيف هو ومَن كان معه من المطوعين من قبائل المغرب .

وفي ذى الحجة منها توفي إدريس بن أبى طلحة عامل أمير المسلمين على مدينة فاس ورباط تازة .

وفيها توفي علي بن عمر عامل سجلماسة للمرتضا ، فقام بها عرف الجياني بدعوة يغمراسن بن زيان وبعثوا إليه فبعث إليها عاملا من بنى عبد الوادى ، وملكها يغمراسن ولم تزل بيده إلى أن دخلها أمير المسلمين يعقوب فى سنة ثلاث وسبعين وستمئة .

وفى يوم الجمعة الثالث عشر من شوال منها أخرج عامر بن إدريس النصارا من قصبة شريش ، وكانت مدة ملكهم لها ثلاث سنين تنقص اثنان وعشرون يوماً .

وفيها قَتل ثابت وعائد ابنا هرقل المغراوى أخاهما محمد بن منديل وجعل البازى يأكل من لحمه ، وكانت مدة إمارته على مغراوة خمسة عشرة عاماً وخمسة عشر يوماً .

وفيها قام المسلمون الدجن بالأريولة على الروم فغلبهم الروم فقتلوا من الروم خلقاً كثيراً ؟ .

وفيها ثقف عامر ابن ادريس ابن محفوظ صاحب لبلة .

وفيها أخذ المسلمون حصن بربى .

وفيها أعطا ابن يونس مدينة اسجة الى دون جيل الرومى وأدخله المدينة ، فأخرج عنها المسلمين ثم قتلهم وسبا حريمهم وأموالهم إلا قليلا منهم تداركهم دون نونه فأطلقهم من يده ونفاهم للاسنه وقائدها يومئذ ابن ربيبه وعذل دون جيل على غدره بالمسلمين ولامه على ذالك ، وكان بين الاخراج الأول والثانى ستة أشهر .

السنة الثالثة والستون وستمئة

فيها بعث العزفى صاحب سبتة أجفانه إلى هدم مدينة أصيلة وتخريبها وهدم قصبتها لأنها كانت قد خلت من الناس ، فخاف عليها بسبب خلائها أن يملكها العدو فيؤذي المسلمين .

وفيها عزم الفنش لعنه الله على استئصال بلاد المسلمين التى بالأندلس وعزم أن يبعث الى كل بلدة منها جيشاً من الروم يحاصرها ، فخاف الناس من ذلك وضجوا لله بالدعاء فى صرف ذالك عنهم .

وفى شهر محرم منها كتب الفقيه أبو القاسم العزفى رسالة الى قبائل المغرب وصلحائهم يستنفرهم بها إلى الجهاد ، كتب منها نسخاً وبعثها إلى سائر بلاد المغرب وبلاد المصامدة فقرئت على الناس ، ونص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم   صلى الله على سيدنا محمد وآله

إلى أولياء الله الصالحين ، وعصابة حزبه المفلحين ، وأعلام الاسلام المكرمين ، وكافة من دنا وبعُد من عباد الله المسلمين ، وصل الله بالذكر انتفاعهم ، وحسن لأحسن القول استماعهم ، وجعل على البر والتقوا تألفهم واجتماعَهم ، ويسَّر لجهاد أعدائه وإظهار الدين وإعلائه مبادرتَهم وإسراعهم ، من وليِّهم فى الله حيث حلوا من نواحى البلاد ، ومعتمد كبيرهم وصغيرهم متوسلين بالاكبار اولايثار والوداد ، ومعتقد النصح لهم مِلأ الجوانح والفؤاد ، ومرغبهم فيما فيه عز الدنيا وفوز المعاد ، ومستنهضهم لما يلحق إليه ويقل هجر الكرا ووصل السهاد ، وقطع متون الديار وبطون الوهاد ، من أبى القاسم محمد بن أحمد العزفى وفقه الله ، سلام كريم عميم يخص معشر إخواننا المسلمين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله مفترض فرض الجهاد ، وجاعل الجنة تحت ظل السيوف الحداد ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الهادى إلى سبيل الرشاد ، والمؤيد بالملائكة المسومين أكرم الامداد ، ومظهر دينه بين حسن الجدال وصدق الجلاد ، وعلى آله وصحبه الذين فاتت فضائلهم التعداد ، وانفردوا بشرف الايثار ومزية الهجرة والنصرة أشرف الانفراد ، والرضا عن الخلفاء الراشدين القاصدين فى كل أقوالهم وأفعالهم قصد السداد ، والدعاء لأهل الاسلام بالنصر الذى له مزيد الازدياد ، والظفر الذى تنقاد فيه الفتوح سهلة القياد ، والنصر الذى أيام الاسلام به ميسم الأعياد ، فكتب كتب الله

لكم فى حماية حماه أحسن الايثار ، وأمدكم فى إعلاء دينه وإظهاره بمزيد الاعلاء والاظهار ، وجعلنا وإياكم ممَّن بادر الى الخير أشدَّ البدار ، من سبتة كلأها الله تعالا ، وصنع الله بها جميل ، وفضلُه المعتاد لا يتعذر معه تاميل ، ونعمُه التى خولها عباده لا يستوفون حسن انسيابها الجميل ، عن نية يعلم خلوصَها عالمُ النجوا ، وجدٌ فى التماس التعاون على البر والتقوا ، وتذكير تنبعث به الحفائظ فى ذات الله وتقوا ، واحتساب بمقتضا الاشفاق ، صير كلماتى هاذه زاد الرفاق لجميع الآفاق ، تخاطب ذوى الأحلام ، وتستصرخ حماة أهل الاسلام ، ويجعل كتابى هاذا مثير كتائبهم ، ومقتضيا بصولة توافر عزائمهم ، وقد قال تعالا وهو أصدق القائلين : (وذكّر فان الذكر تنفع المومنين) ، والحكمة لصدإ القلوب جلاء ، والنفوس ما لم تُذكَّرْ فللغفلات عليها استيلاء ، والله ينفعنا بالذكرا ، ويجعلنا وإياكم ممَّن رغب عن الدنيا رغبة فى الأخرى ، وقد كان فى هاذه السنة والتى قبلها من تحرك الناس للجهاد ، وانبعاث عباد الله لنصر دين رب العباد ، ما اشتهر خبره ، وظهر للعيان أثره ، وتعجل به النصر ولينصرنَّ الله مَن ينصره ، وجلا عن وجه الصنع الغريب ، فى الزمان القريب ، فسارت به البشائر ، وتجاذبت به أطراف طرف الحديث فى مجالسهم العشائر ، ونثرت فى كافور الصحف مسكها الأقلام ، وسفرت عن رونق محاسنها وجوه الأيام ، ولكن جموعاً من المجاهدين شق عليها اغترابها ، وبساقها الحنينُ إلى أرض مسَّ الجلدَ ترابُها ، وتذكرت خيلُها مرابطَها ، وكأنها شاقت دون الأندلس فانتجعت من أرضها مساقطها ، فكروا راجعين ، وصدروا على أعقاب الورود مسارعين ، والكلم فى العدا لم يرقأ دمه ، وتألفهم على أهل الاسلام لم يعلم عدمه ، والكفر يقرع بابه ، والغيظ فى صدور أهله قد تمكن أنيابه ، وانزعاج الكفر لطلب الثار قد قويت أسبابه ، والآن اتصلت الأنباء أنهم أهلكهم الله قد شمروا لطلب الثار ، ورفعوا شعارهم الشعار ، وبئس الشعار ، يطوفون به فى بلادهم ، ويطلبون منه النصر على أضدادهم ، ويسألون مغفرة الذنوب قسيسهم وعبادهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، تبّاً لرأي الكفرة ، وبئس ما أشركوا مع الله فى المغفرة ، واعجبا لنصر طلبوه ، من مرفوع زعموا أن اليهود صلبوه ، تبّاً لما أجمعوا عليه ، وما قتلوا يقيناً

بل رفعه الله إليه ، ومع جهالتهم وضلالتهم قد لجوا فى طغيانهم ، وأطاعوا أمر غواتهم فى عصيانهم ، وبذلوا فى الاستنفار من أقاصي الأقطار أقصا وسعهم وجعلوا شهر هاذا الآتى قريباً موعداً قالوا لا نُخلفه ، وتأهّبوا لتلافى أمرهم المختل والله سبحانه بحوله وقوته متلفه ، ونحن عباد الله لا نشرك بعبادته أحداً ، ولا ندعى له صاحبة ولا ولداً ، ولا نمدُّ لغيره فى سؤال المغفرة يداً ، ولا نستوهب النصر لأحد سواه ، ولا نتوسل إلا بأكرم الخلق عليه محمد بن عبد الله ، رسوله وعبده ، وفينا كتابه الكريم يُتلا ، وآياته التى هي على مرّ الأيام لا تبلا ، وأحاديثُ النبي (ص) تكتب التجارة الرابحة ، والحياة الدائمة الصالحة ، فانه من قُتِل فى سبيل الله فهو حي يرزق ، بذالك شهد الكتابُ ونطق ، فقال تعالا : (ولا تقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون) ، أفى الحق عباد الله أن تزهدوا فى الجهاد ، وتناموا عن الكفرة وأعينهم منكم فى سُهاد ، وتسلموا من المسلمين بالأندلس إخواناً فى الله توالونهم ويوالونكم ، من تتواقوا عن الأعداء بتقدم الأهبة يستعجلونكم ، وقد قال تعالا : (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) ، يأبا الله إلا قتالا فى سبيله ، وامتثالا لما نزل به الروحُ الأمين على قلب رسوله ، وطعناً فى نحور العدا يشفى به الاسلام من غليله ، فانهضوا رحمكم الله إليهم متقدمين ، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ، ولا يثبط بعيدا طول مسافة المعاد ، ولا يؤلم منفقا إنفاد بعض المستفاد ، فما أنفقتموه فى ذات الله هو الذى لم تدركه يد النفاد ، (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) ، والتهلكة عند أبى أيوب ترك الجهاد والجهاد باب فرض لجنة العروض ، وفرض على أمة محمد (ص) مفروض ، مَن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل والصغار ، والرغبة عنه وان اجلبت ذل وهوان ، ولكن لا جهاد الا بنية ، وعقيدة على إعلاء كلمة الله مبنية ، فقد آن عباد الله إخلاص النية ، والتماس ما عنده من الدرجات السنية ، ولا تخلدوا بركون ، الى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الاسلام أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار بارهاب الجد ، واعمال الجهاد فى ليل الجد ، ولمَ لا نرسل فى الجهاد الأعنة ، ونعمل

فيه النيات والصوارم والأسنة ، ونستوهب من الله النصر بالتضرع والمسكنة ، ونستصلح بسؤال توفيقه خبال الصدور المستكنة ، أما أتا مَن كان قبلنا خطاب (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) ؟ أما أنذركم باعث الاشفاق، بقوله (ص) (مَن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق) ؟ أما سمعتم حديث أبى أمامة أن رسول الله (ص) قال : مَن لم يغز أو يُجهِّز غازياً أو يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة يوم القيامة ، ففيم ضعف العزيمة ؟ والشح ببذل النفس الكريمة ؟ أإمساك خشية إنفاق ؟ أو الجبن هو من مساوى الأخلاق ، رُبَّ ناكل عن قرنه لم ينجح منه بنكول ، ومخاطر بين ثناء الخطار متع من أيامه بطول ، وقد تعاضدت فى الجهاد الآيات والأخبار ، فقال (ص) ما اغبرَّت قدمُ عبد فتمسه النار ، فحذار أيها الملتزم حذار ، وخف أن تكون مقيماً ، وتوق وعيدَ (إلا تَنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) ، (انفروا خفافاً وثِقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذالكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) ، فما للتأخر سبيل ، ولا فى ظل التوانى للمجد مِن مقيل ، وكتابُ الله تعالا أوضح بيان وأهدا سبيل ، فقد قال تعالا : (فليقاتلْ فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومَن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نوتيه أجراً عظيماً) ، وقال جل وعلا : (فقاتل فى سبيل الله ، لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين ، عسا الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا ، والله أشدُّ بأساً وأشد تنكيلا) ، وقال تعالا : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً) ، وقال تعالا : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط الخيل، تُرهبون به عدو الله وعدوكم) ، وقال تعالا : (قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مومنين ويذهبْ غيظَ قلوبكم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليكم حكيم) ، وقال تعالا : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين) ، وقال تعالا : (إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يُقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن)، وقال تعالا : (ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، وقال تعالا : (ياأيها

الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذالكم خير" لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذالك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح" قريب وبشر المومنين) ، وقال رسول الله (ص) فيما يروى عن ربه عز وجل يقول الله تعالا : (ضمنت لمَن خرج من بيته لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيل وايماناً بى وتصديقاً برسلى أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة) ، وقال رسول الله (ص) (مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القائم القانت بآيات الله لا يفتر عن صيام ولا صلاة حتى يرجع الى أهله) ، وقال عليه السلام : (لغزوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله (ص) مَن جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا) ، وعن أبى هريرة عن النبي (ص) قال : (لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً) ، وقال عليه السلام : (من طلب الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) ، وقال عليه السلام : (إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) ، وقال عليه السلام : (الجنة تحت ظلال السيوف) ، وقال عليه السلام : (مَن خرج مجاهداً فى سبيل الله فمات أو قتل او وقصه فرسه أو لدغته هامة أو مات على فراشه أو بأي الحتف شاء الله فان له الجنة وهو شهيد) ، وقال عليه السلام : (يشفع الشهيدُ فى سبعين من أهل بيته ومَن جُرح فى سبيل الله فانه يجيء يوم القيامة وجرحه يدما ، اللون لون دم ، والرائحة رائحة المسك ، وإن الشهيد لا يجد من مس القتل ألماً ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم) ، وقال عليه السلام : (رباط يوم فى سبيل الله أفضل من صيام ألف يوم وقيام ألف ليلة) ، وقال عليه السلام : (مَن كبَّر تكبيرة فى سبيل الله كانت له فى ميزانه يوم القيامة أثقل من السماوات والأرض وما فيهن) .

وهاذه أعزكم الله تعالا بطاعته ، وجعلنا وإياكم ممن أسرع إلى الخير بأشد استطاعته ، آيات الكتاب العزيز واضحة الدلالة ، وأحاديث رسول الله

(ص) لائحة عليها أنوار الرسالة ، أما فيها غنية لِلَبيب ؟ ألم تجمع بين الترغيب والترهيب ؟ وأنتم معشر العلماء والصلحاء تلزمكم دون مَن دونكم عهدة التذكير والتبصير ، فقوموا لله مقاماً محموداً ، واتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، وحرضوا على الجهاد عن أرجائكم ، وقوموا إلى الله تعالا صدق التجائكم، تظفروا بذالك مناكم ، ولِمَ لا تحرضون بأمكنتكم ، وتجاهدون قبل الجهاد بألسنتكم ؟ وأنتم بفضل الله متيقظون ، ولما أمر الله به ونها عنه متحفظون ؛ والناس بما استيقظتموهم أيقاظ ، وإذا استثرتُم حفائظهُم فعندهم بحول الله حفاظ ، فانما هم لكم أتباع ، وهاذه الجنة فهل لها من مبتاع ؟ وهاذا أوان صدق العزيمة ،والقيام لله بهاذه الوظيفة العظيمة ، وأَوْلا من خُص بالتذكرة ، للعبد بالموعظة المذكرة ، رؤساء هاذه العدوة وأمراؤها ، وأشياخ القبائل وكبراؤها ، فقد أوسع الله لهم فى العطايا ، وبسط فى الرعايا ، ومكن لهم فى أرضه خير التمكين ، ووفرهم من الحماة بأمثال آساد عرين ، وأرجو أن الله تعالا ينصر هاذا الدين ، بسيوف العصابة المباركة بنى مرين ، إذ هم الليوث الظافرة ، ولهم الأعداد الوافرة ، والجموع المتكاثرة ، والعساكر التى تسيل بالفضاء منها البحور الزاخرة ، من كل أسد هائج للكفاح ، ومنتضى عضب بيده فى ظلام القتام غرة الصباح ، وممتطى صهوة جواد كمنحط الصخرة ومنقض الطير وعاصف الرياح .

قوم إلى بر بن قيس نماهم نسب على أوج النجوم مخيم

بالبيض والبيضات والحلق اكتسوا فتوشحوا وتتوجوا وتختموا

فكيف يتنعمون بنعماه ، ولا يمنعون حماه ؟ ويؤمرهم الله على أوليائه ، ولا يأمرون له فى أعدائه ، بأي دينهم الذى به الى الله توسلهم وتوصلهم الى جهاد فى سبيله ، وابتغاء لما عنده من جسيم الثواب وجزيله، وتلبية لصارخ الاسلام، وخفة لنصرة تحتها رجاحة الأحلام ، ورجاء لما غشي النفوس من الخطوب العظام ، وتعظيماً لما رجاه إخوانهم المسلمون لشملهم من الانتظام، وأخوة الدين تنشدهم برحمها ، وتدعوهم لحفظ ذممها ، وتطالبهم برعي عهودها التى لا يشك فى كرمها ، والملة الحنيفة تنادى بلسان حالها أيها المؤمن هل من عزم فى الله

تمضيه ؟ وعضب لجهاد أعدائه تُنضيه ؟ وموطن يغيظ الكفار يتقبله الله ويرتضيه ؟ فقد جزا مقعد مقيم وسهرت أعينهم أسحها الله فى طلب ثارهم ، أفيرومون الحركة ونحن ساكنون ؟ تالله ما أنصفناهم ، وإذا لم نزع المخافة عن إخواننا فنحن خوفناهم ، فما يسوغ عنهم قرار ، ولا عذر إلا لمن أقعده مرض أو إقتار ، وإن كان الكفرةُ قد رفعوا شعارهم الصليب ، واستنفروا له البعيد والقريب ، ونادوا والله يُهلك مناديَهم والمُجيب ، فها كتاب الله لنا شعار مرفوع ، وحديث رسوله فى فضل الجهاد ووجوبه فى هاذا الكتاب مجموع ، فنحن أوْلا بالاسراع ، وأحقُ عن دين الله بالدفاع . والنصر بحمد الله قد هب ريحه ، واستوت على الكفار تباريحه ، والحزمُ ألا تُضاع فرصة عند إمكانها ، ومساعدها السعد بدنو زمانها ، فمن صدق إسلامُه ، فليصدق إقدامه والمسلم — كما قال عليه السلام — أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، والله يعلم أنى بالغت فى النصيحة ، وقطعت بمبلغ النية الصريحة والعقيدة الصحيحة ، وامتعضت للدين أشد الامتعاض ، وتأملت مَن بجزيرة الأندلس من أهل الايمان وعباد الرحمن ، من الرجال والنساء والولدان ، فطويت الضلوع على حرقة الارتماض ، فمن وصل إليه هاذا الكتاب فهو فى دُعوتنا إلى الله وعهدته لازمة لديانته حتى يبعث بنسخه فى البلاد ، وتعم به الدعوة للجهاد ، مَن بالجبال والوهاد ، فيفوز من الأجر بأوفا نصيب ، ويجمع فى نكاية العدوتين الرمي الأبعد والمرام القريب ، ونسأل الله العظيم أن يمدنا معشر عباده المسلمين ، بتأييده وعضده على أعدائه الكافرين ، اللهم إنا ندعوك بما دعاك به نبيك تأسياً بدعواته ، وتيمناً بكلماته ، حينما قال : اللهم منزلَ الكتاب ، ومجريَ السحاب ، وهازم الأحزاب ، إهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم آمين آمين . والسلام الكريم يخصُ مَن قرأه وقرىء عليه من إخواننا المسلمين ، ورحمة الله وبركاته ، كتب فى العشر الأواخر لمحرم سنة ثلاث وستين وستمئة .

وفى سنة ثلاث وستين المذكورة تحرك أمير المومنين يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش برسم حصارها على أهلها فوصل الى أحوازها فبايعه أكثر قبائل العرب والمصامدة الذين بأنحائها ، ودخلوا فى طاعته فكفَّ عنهم وأمَّنهم ورجع إلى مدينة فاس .

وفيها ورد أبو دبوس الموحد على أمير المومنين يعقوب لفاس مستنصراً به على المرتضا ، فانه لما رجع أمير المسلمين يعقوب عن مراكش إلى فـاس وُشِيَ للمرتضا بأبي دبوس قائد جيوشه ، وقيل له إنه يكاتب بني مرين ويصانعهم وهو يريد القيام عليك والناس يميلون إليه لشجاعته ، فانظر في أمره ، فأراد أن يقبض عليه فشعر أبو دبوس بذالك ففر منه ولحق بيعقوب أمير المسلمين بمدينة فاس فأقبل عليه وبالغ في إكرامه وبره ، ثم قال له ما هاذه الزيارة ؟ قال لست بزائر ، ولكنى دخيل مستجير بك ، إني فررتُ من القتل وقصدت حماك لتنصرني وتعينني على عدوي وعدوك ، قال وما تريد أن أنصرك به وبماذا ؟ قال : تعطيني جيشاً من بني مرين وطبولا وبنوداً وتعينني بما أنفق على ذالك في طريقي وأنا أتضمن لك فتح مراكش وأحوازها ، فان أكثر مَن بها من الجيوش والقواد والأشياخ شيعة لي ، وإذا ملكتُها يكون بيننا ملكها مشتركاً نصفها لك ونصفها لي ، فأسعفه أمير المسلمين بطلبه وعاهده على ما شرط له وتوثق منه بالعهود والأيمان المغلظة . فأعطاه جيشاً من ألف فارس من بني مرين وأعطاه طبولا وبنوداً وخيلا وسلاحاً ومضارب ومالا ناضّاً برسم النفقة في طريقه ، وكتب له كتاباً إلى قبائل العرب وقبائل هسكورة أن يؤازروه على مطلبه ويتقدموا بين يديه إلى قتال عدوه ، ثم ودّعه وارتحل أبو دبوس الى مراكش وذالك في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستيـن المذكورة . فنزل بمكناسة فبات بها ليلة ، ثم توجه إلى المعدن ثم إلى تادلة وعيّد بها عيد الأضحا ثم سار إلى هسكورة فبقي بها عند مسعود بن جلداسن نحو سنة يحاول أمر مراكش .

وفيها نزل الأمير أبو مالك على محمد بن إدريس بقصر عبد الكريم فحاصره أياماً ثم طلب الأمان فأمّنه وخرج اليه وذالك ليلة الموفى عشرين من شهر رمضان منها .

وفيها توفي أبو عياد بن يحيا بمالقة في آخر شوال منها .

وفيها توفيت فاطمة بنت علي بن زيان زوجة الأمير أبي بكر .

وفيها هزم دونته النصراني جيش غرناطة ومرّ على مالقة فيها مرتين بالربيع والخريف .

وفيها توفي الفقيه الشريف الصالح عبد الواحد بن أحمد الحسنى الجوطـى .

السنة الرابعة والستون وستمئة

فيها بايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث له المستنصر هدية ومالا فى البحر .

وفيها نزل الفونش لعنه الله غرناطة .

وفى شعبان منها جاز أولاد يحيا من الأندلس ونزلوا بطنجة ، فقتلوا العباس بن محمد بن عبد الحق وعمر بن عثمان .

وفيها توفي الشيخ الصالح المبارك السواح أبو العرب الغرناطى بفاس ودفن بخارج باب الفتوح بازاء قبر الشيخ الورياڭلي ، وكانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة عند الزوال .

وفيها زوج ابن الأحمر ابنتَه إلى ابن عمه الرئيس سعيد بن إسماعيل ابن يوسف بن نصر ووعده بولاية مالقة فسمعها ابن اشقيلولة واليها فقام فيها وضبطها لنفسه .

السنة الخامسة والستون وستمئة

فيها سار أبو دبوس من هسكورة إلى مراكش وراية أمير المسلمين يعقوب بين يديه وجيوشه المظفرة من بنى مرين سامعة مطيعة له بعد أن كتب إلى من بمراكش من خاصته يخبرهم بقدومه ويسألهم عن حال البلد والمملكة فرجع إليه جوابهم أن اقدم فان الناس فى غفلة والجيوش مفترقة فى أطراف البلاد وليس تجد وقت فرصة مثل هاذا ، فأسرع أبو دبوس نحوها وجد السير بجيشه حتى دخلها من باب الصالحة فى ضحا يوم السبت الثانى والعشرين من شهر محرم من سنة خمس وستين المذكورة ، فتملك أبو دبوس حضرة مراكش واستقر بقصرها وفر عنها المرتضا إلى أزمور فقبض عليه والى أزمور يحيا بن عطوش وأكبله وبعث به إلى أبى دبوس فى شهر صفر التالى لمحرم

ألمذكور ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين يعقوب فبعث اليه رسوله وكتب يهنئه بالفتح وطلب منه الوفاء بالعهد الذى كان بينهما ، فلما وصل الرسول وقرأ ما فى الكتاب قال للرسول ما بينى وبينه عهد الا السيف ، إرجع إليه وأمره أن يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد ، فان بادر بالبيعة وسارع إلى الخدمة فهو خير له فى الدنيا والآخرة ، وإن امتنع من ذالك غزوته بجنود لا قبل له بها ، وكتب له بذالك كتاباً يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء إلى عمالهم والرؤساء الى خدامهم ، فلما وصل الرسول والكتاب الى أمير المسلمين يعقوب وتحقق عنده غدر أبى دبوس ونكث عهده وما كان شرط له وعاهده عليه عزم على غزوه .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب من حضرة فاس الى مراكش لغزو أبى دبـوس

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

خرج أمير المسلمين يعقوب من حضرة فاس برسم غزو أبى دبوس الناكث لعهده فى غرة ربيع الثانى سنة خمس وستين المذكورة ، فسار حتى أنزل ببلاد دكالة من أحواز مراكش جيوشه وهتكها وأكل زرعها وسبا أموالها ، فبعث إليه أبو دبوس الشيخ الصالح المبارك أحمد بن مخلوف الهسكورى بهدية سنية يقول له : يوفى لك بما يجب وما كنت اشترطت عليه ، فرجع أمير المسلمين يعقوب وجميع بنى مرين الى المغرب ، فلما رجع الى فاس خرج أبو دبوس من مراكش الى السوس ، فأتاه عرب الخلط فبايعوه وشيخهم يومئذ علي بن أبى علي .

وفيها قدمت عرب المعقل بأولادهم وأموالهم وعيالاتهم على أبى دبوس بتامزاورت وشيخهم عبد المومن بن أبى الطيب وكان قد بلغ السن العالية فبايعوه وعاد الى نكثه بأبى يوسف يعقوب .

وفى ذى القعدة منها بعث يغمراسن بن زيان ببيعته الى أبى دبوس وهو يقول له : إياك أن تطمع بنى مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم ، وأنا وأنت يد واحدة فى حربهم ، فسر أبو دبوس بذالك ، وقال الآن أظهر على بنى مرين ، فجمع أشياخ الموحدين والعرب فقرأ عليهم بيعة يغمراسن وكتابه فوافقوه وضربت الطبول على ذالك .

وفيها صالح ابن الأحمر الفونش على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من جملتها شريش والمدينة والقلعة ، وقيل إن جملة ما أعطا ابن الأحمر لألفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس .

وفيها استعان ابن الأحمر بألفونش على قتال ابن اشقيلولة الثائر عليه بمالقة ، فنزلوا عليه بها ثلاثة أشهر ولم يقدروا منها على شيء فانصرفوا عنه خائبين .

ولما أعطا ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرندى يرثى بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدوة من مرين وغيرهم بهاذه القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهاذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات" وخرصان
وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ما ساسه فى الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان
أتا على الكل أمر" لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
تخلفوا عبراً وأصبحوا خبراً ... كما حكا عن خيال النوم وسنان

دار الزمان على داراً وقاتله ... وأمَّ كسرا فما آواه إيوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وبعضها فوق بعض وهي ألوان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان

دها الجزيرة خطب لا عزاء له ... هوا له أحد وانهدَّ ثهلان

أصابها العين فى الاسلام فامتحنت ... حتى خلت منه أوطان وبلدان

فسلْ بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعدكن أركان البلاد وما ... عسا البقاءُ إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكت لرسول الله أجفان

على بيوت من الاسلام عاطلة ... كأنها لم تكن بالذكر تزدان

صارت كنائس قد طال الضلال بها ... فليس إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريبُ تبكى وهْي جامدة ... حتى المنابر ترثى وهي عيدان

ياغافلا وله فى العيش موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر القوم أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... ومالها مع طول الدهر نسيان

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم خبر من أهل أندلس ... فقد سرا بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بها المستضعفون وهم ... أسرى وقتلا فلا يهتم انسان

ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم ... وأنتم ياعباد الله إخوان

يامَن لذلة قوم بعد عزتهم ... كأنهم وهم الأحرار عبدان

ألا نفوس أبياتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخير أنصار وأعوان

بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارا لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رايت بكاهم عند بيعهـــم ... لهالك الأمـر واستهوتك أحـــزان
كم من أسير بحبل الذل معتقـــل ... كأنه ميت والذل أكفـــان
يارب أم وطفل حيـل بينهمـــا ... كما تفـرق أرواح وأبـــدان
وطفلة ما رأتها الشمس قـد برزت ... كأنمـا هي ياقوت ومرجـــان
يقودها العلـج للمكـروه مكرهـــة ... والعينُ باكيـة" والقلبُ حيـــران
لمثل هاذا يذوب القلب من كمـد ... إن كان فى القلب إسـلام وايمـــان

وفى السادس والعشرين من شهر رمضان منها قتل أولاد أبى بكر يوسف بن محمد الأمير صاحب طنجة بقصبتها وقتل أولاد أبى بكر ورجالهم تلك الليلة فوصل خبرهم إلى أمير المسلمين يعقوب يوم عيد الفطر .

وفيها ملك النصارا مرسية .

وفيها بعث أمير المسلمين يعقوب رسله إلى المستنصر صاحب تونس وهم عبد المومن بن إدريس بن عبد الحق ، وعبد الله بن كندوز العبد الوادى ، والفقيه الكاتب أبو عبد الله الكنانى ، فأقام الشيخان بتونس ثلاثة أشهر ورجعا وأقام الكنانى بتونس إلى أن أتا مع رسول المستنصر وهديته وهو أبو زكرياء ابن صالح بعثه المستنصر بهدية سنية .

وفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادا الأخرا من سنة خمس وستين المذكورة توفي الفقيه الأستاذ المقرىء أبو القاسم المزياتى وله شرح مفيد على كتاب الجمل .

وفيها فى ذى الحجة منها خرج أمير المسلمين يعقوب برسم طنجة ثم بدا له وسار إلى سلا وبعث ولده الأمير أبا مالك إلى طنجة فنزلها وأقام عليها عشرين يوماً وارتحل عنها وبقيت طنجة بيد أولاد ابن الأمير خمسة أشهـر وأخذها أمير المسلمين يعقوب سنة اثنتين وسبعين وستمئة .

وفى هاذه السنة قتل أبو دبوس عبد العزيز بن السعيد .

السنة السادسة والستون وستمئة

فيها سار أمير المسلمين يعقوب من رباط الفتح إلى مراكش لحصار

أبى دبوس ، فسار حتى نزل بظاهر مراكش فحاصرها أياماً وهتك أحوازها فلما رأا أبو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار وفساد الزروع ونسف الآثار وانتشار المجاعة ببلاده وغلاء الأسعار بعث إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يستنصر به على أمير المسلمين يعقوب ويقول له : كن معى يداً واحدة على حربه وبعث إليه بهدية سنية ، فاتفقا على حرب أمير المسلمين يعقوب فشن يغمراسن الغارات فى أطراف المغرب وبلاد ملوية ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين يعقوب وهو بأحواز مراكش فانه بسبب ذالك كر راجعاً الى حرب يغمراسن ورأا أن مبادرته وتقديم حربه من أوجب الواجب إذ هو فارس زمانه البطل الشجاع المحارب فسار حتى وصل مدينة فاس فأقام فيها أياماً وخرج إلى لقاء يغمراسن بن زيان .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب الى يغمراسن وملاقاتهم بوادى تلاغ

خرج إليه من حضرة فاس فى النصف من ربيع الأول من سنة ست وستين المذكورة فى احتفال عظيم وزي عجيب بالعيال والمواكب والقباب والجيوش الوافرة والعدد والسلاح والسيوف الباترة ، وسمع يغمراسن باقباله ، فاستعد وتأهب للقائه ، فالتقا الجمعان بوادى تلاغ بالقرب من وادى ملوية ، فعبأ كل واحد منهما جيوشه وميز كتائبه واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش فى الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال ، واختلط الأمثال بالأمثال وتمازجت الركاب ، وبرزت الغانيات من القباب ، وزحف الجيش إلى الجيش وقصد القرين إلى القرين ، فكانت بينهما حروب عظيمة لن ير مثلها فلا ترا إلا الخيول ترمح، وبفرسانها إلى اللقاء تطمح، والسيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام تقطع وتقطف :

والجو يرمل فى سمـاء فساطـل وبنا بها ظللا عـلى الفرســان
والسيف دانى المضربين كجدول فى ضفتيه شقـائـق النعمـان

أو كما قال من شاهد الحال وعاين ذالك الموقف مـن الحـروب وشدة الاهوال :

سل عن مواقف حربهم لما التقت يوم الصياح كتائب بكتائـب
والنبل فى ظلم العجـاج كأنـه وبل تتابـع فى خـلال سحائـب

فدام القتال بين الفريقين من وقت الضحا الى وقت الظهر ، وصبرت مرين لقتال عدوها صبر الكرام الى أن منحهم الله تعالا النصر على بنى عبد الوادى ، فهزموهم وأذاقوهم الحمام فى ذالك الوادى ، وفر أميرهم يغمراسن على وجهه مهزوماً ، وقتل قرة عينه عمر وهو أكبر ولده وولى عهده ، وقتل عبد الملك بن حنينة وأبو يحيا بن يحيا وعمر بن إبراهيم بن هشام وجماعة من أشراف بنى عبد الوادى ، وولت بنو عبد الوادى الأدبار ، وخلفوا النواهد والأبكار ، وسار أمير المسلمين يعقوب برايته المنصورة وكتائبه المؤيـدة المظفرة فى أعقابهم ، وسيوفهم فى رقابهم ، فدخل يغمراسن حضرة تلمسان مهزوماً ، وتفرقت جيوش بنى عبد الوادى فلا ترا منهم إلا قتيلا أو جريحاً أو خائفاً شريداً ، وانتهبت مرين جميع ما كان فى معسكرهم من الأموال ، والخيل والسلاح والأثقال ، وكانت هاذه الغزوة المذكورة يوم الاثنين الثانى عشر من جمادا الأخرا من السنة المذكورة ، فانصرف أمير المسلمين من هاذه الغزاة (مظفراً منصوراً ، مؤيداً مسروراً ، فاقام بمدينة فاس إلى أن ظهر هلال شعبان من السنة المذكورة فخرج إلى مراكش لغزو ابى دبوس الناكث لعهوده ، فلم يزل يوالى المسير ، والسعد يقدمه والتيسير ، حتى وصل إلى وادى أم الربيع ، فنزل هناك وبث جنوده فى بلاد ابى دبوس ياكلون زروعها وينسفون ربوعها ، فاقام هناك إلى أن دخلت سنة سبع وستين فى غرة المحرم منها ارتحل عن وادى أم الربيع إلى ناحية تادلة فغزا بها عرب الخلط فاكلهم وسبا حريمهم واموالهم ورجع من تادلة فنزل بوادى العبيد ، فاقام هنالك أياماً ، ثم غزا بلاد صنهاجة وسباها واقبل يدور فى أحواز مراكش إلى آخر ذى القعدة من سنة

سبع وستين وستمئة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة فساروا إلى أبى دبوس وقالوا له : كم تقعد عن حرب بنى مرين وتجبن عن لقائهم ؟ أما ترا بلادنا قد خربت ؟ وأموالنا قد نهبت ؟ وحريمنا قد سبي ؟ فاخرج لجهادهم عسا أن يكون السبب لبعادهم ، فانهم فى شرذمة قليلة وعصابـة يسيرة ، وأكثرهم قد بقي برباط تازة يحرس ذالك الثغر خوفاً عليه من بنى عبد الوادى فاغتر أبو دبوس بقولهم وسارع إلى نصرهم ، وخرج فى جيوش عظيمة وجنود وافرة من الموحدين والعرب (17) والروم والأغزاز ، فلما سمع أمير المسلمين يعقوب بخروجه من مراكش كرَّ راجعاً نحو المغرب حيلة منه أن يتبعه فيبعده عم مراكش فيتمكن من قتاله ، فسمع أبو دبوس برجوعه فطمع فيه وظنَّ أن رجوعه إنما هو خوفاً منه ، فأتبعه وكان إذا ارتحل أمير المسلمين يعقوب من موضع نزل هو فيه ، فلم يزل لأثره يقفو إلى أن نزل بجيشه وادى غفو ، فكر أمير المسلمين راجعاً فى وجهه عازماً على لقائه حين علم أنه قد بعُد عن حضرته ودار إمارته ، فالتقا الجمعان بوادى غفو المذكور ، فكان بينهما حرب شديد مذكور ، وأقبلت أقيالُ مرين أمثال العقبان والتحم بينهما القتال ، واشتد الحرب وعظم النزال ، وأظهرت مرين فى حربه جدها وصبرها فى القتال ، فباشر أبو دبوس القتال بنفسه فرأا مالا طاقة له به ، فأراد الفرار بجنته لكي ينجو إلى حضرة مراكش فيتحصن بها فأدركته أبطال مرين وأقيالها فترفق بجماعة من أبطاله فحالوا بينه وبين أمله ومراده ، وسارعوا إلى قتاله ، فطعنوه فى وسط المعترك بالرماح وسقط تحت جواده مثخناً بالجراح ، فأخذ قاتله رأسه فى الحين ، وأقبل به إلى أمير المسلمين ، فلما وُضع الرأسُ بين يديه استرجع ثلاثاً ، ثم حمد الله وأثنا عليه وخر لله ساجداً ولم يزل شاكراً لله حامداً ، ثم رفع رأسه وقال : هاكذا يفعل الله بكل غارد ناكث ، ومفسد كاذب حالف حانث ، ثم أمر بالرأس فحُمِل إلى فاس ، ليعتبر برؤيته جميع الناس ، واحتوا أمير المسلمين يعقوب على محلته وجميع أمواله وخزائنـه وبلاده ، وكان قتلُ أبى دبوس وانقطاعُ دولة الموحدين من المغرب وتملكُ أمير المسلمين يعقوب دولتهم ومملكتهم فى يوم الأحد الثانى من شهر محرم

17) الجمل المكتوبة بحروف مغلظة زيدت من القرطاس ليستقيم الكلام .

من سنة ثمان وستين وستمئة ، وانقطعت بدولته الدولةُ الموحدية المومنيةُ ولم يبق لها أثر ولا رسم ، وصارت خبراً يذكر والبقاء لله وحده .

وذكر الشيخ الصالح أبو القاسم الشوطى قال : كنت فى يوم الأحد الثانى من محرم المذكور وهو اليوم الذى قُتل فيه أبو دبوس تحت الثريا الكبرى من جامع القرويين من فاس فقعد رجل وسيمُ الوجه فأنشدنى :

ملك بنى مؤمن تـــــولاً وكان فوق السماك سمكُـــــه
فاعتبروا وانظروا وقولوا سبحان مَن لا يبيد ملكُـــــه

فانصرف عنى وحفظتُ البيتيْن فأرخت اليوم فبعد ثلاثة أيام اتصلت الأخبار بموت أبى دبوس فى ذالك اليوم بعينه .

السنة الثامنة والستون وستمئة

فيها ارتحل أمير المسلمين يعقوب بعد قتل أبى دبوس إلى حضرة مراكش ففتحها ولما قرب منها فر عنها مَن كان بها من الموحدين الى الجبل ، وخرج فقهاؤها وصلحاؤها وقضاتُها وعمالُها وأشياخُها إلى لقائه ، فتلقَّوْه وبايعوه وطلبوا منه أمانه فأمَّنهم وجميعَ أهل المدينة وأحوازها وتلقاهم بالبِرِّ والاكرام وأحسن إلى جميعهم بالخُلَع والأموال ، كلٌّ على قدر مرتبته ، ثم سار فدخل حضرةَ مراكش فى يوم الأحد التاسع من شهر محرم المذكور من سنة ثمان وستين المذكورة ، فاستقر بقصبتها وتمَّ له ملك الغرب وتهدنت البلاد ، وصلح حالُ جميع مَن فيها من العباد ، وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات ، وأذعن أهل تلك البلاد الى الطاعة ودخلوا فى الجماعة ، فلا ثائر ولا مفسد ولا قاطع ، ولا خارج يخشا منه ولا منازع .

ولما دخل أمير المسلمين يعقوب حضرةَ مراكش أمَّن أهلها وعفا عن مَن قعد بها من الموحدين وأحسن إلى أشياخ المصامدة وحطَّ عن قبائلهم كثيراً مما كانوا فيه من الوظائف المخزنية ، وأفاض فيهم العدل فأحبَّه جميع الناس ، وحين دخل حضرة مراكش تسمَّا بأمير المسلمين ، وخرجت عنه الكتب الى القبائل ، وكان قبل ذالك يُدعا بالأمير ، وبعد دخوله مراكش بأيام قلائل بعث ولده الأمير أبا مالك عبد الواحد رحمه الله الى بلاد السوس الأقصا

لغزو مَن بها من الثوار والأمم المخالفين والقبائل من المنافقين ومَن فـرَّ إليها من أشرار الموحدين ، فسار اليها في جيش عظيم من بني مرين ، ففُتِحت تلك البلاد بأجمعها وأطاعه جميعُ قبائلها وأتاه رؤساؤها طائعين مذعنين من جميع نواحيها ، ففتح السوس الأقصا بأسره من ماسَّة الى نون الى البحـر المحيط ، واستقام له أمره ، وقتل مَن كان به من الثوار ، وأمَّن البلاد وأصلح أحوالَها ، ورجع الى حضرة مراكش فسُرَّ والده يعقوب بقدومه سروراً عظيماً .

وأقام أمير المسلمين بمراكش يسدد أحوالَها وينظر في مصالح أهلها ويُزيل مظالمَها . ووفد عليه بها وفود البلاد يسلمون عليه ويُهنِّئونه بالفـتـح .

وفي هاذه الأيام رفع الفقيه الأديب مالك بن المرحل إلى الأمير أبي مالك عبد الواحد ابن أمير المسلمين قصيدة يهنيء بفتح مراكش :

فتح تبسمت الأكوانُ عنه فمـــا رأيت أملح منه مبسمـاً وفمـــا
فتح كما فتح البستانُ زهرتَـــه ورجَّع الطيرُ في أفنانه نغَمـــا
فتح كما انشقَّ صبحٌ في قميص دجـا
وطرز البرقُ في أردانـه علمــــا
أضحت له جنةُ الرضوان قـد فتحـت
أبوابهـا وفـؤاد الدين قـد نعمـــا
الحمد لله هاذا ما وعــدت بـــه ياخير مَن ولي الدنيا ومَن حكمـا
لم يخلفْ الله وعـداً كـان واعـــده
فاشكر يضاعفْ لك الحظَّ الذى قسمـا
بفتح مراكش عمَّ السرورُ فمـــا يكابد الغمَّ إلا قلب مَن ظلمـــا
حبا بها اللهُ مولانا الأميرَ كمـــا حبا أباه فأسنا فتحهَا لهُمَـــا
فلم يزل سعده المألوفُ متصـلا بسعد والده المنصور منتظمـــا
فدولةُ الدين والدنيا قد اختلفت في الفتح والنصر والتأييد بينهما
أفاقت الأرض من نـوم بها وصحـت
وأصبحتْ وهْي تلحى السكر والحلمـا
لما رأت راية السلطان قد رفعـت في أفقها قرعت أسنانَهـا ندمـا

فاستقطفت منه قولا من سجيته   أن يحقر الذنب والعوار إن عظما

من سنة الله أن يحيى خليقته   على يديك وأن يكفيهم النقما

وأن يقيم بك الاسلام من أود   وأن يديم بك الاحسانَ والنعما

وأن يقرَّ عيونَ المسلمين وأن   يشفي الصدور وأن يبرى بك السَّقَما

بشراك ياملكَ الدنيا وحافظَها   فأنت أفضل مَن ءاوا ومَن رحما

إذا نسخنا معاليك التي رأقت   فلم تر البأس فيها بز للكرما ؟

كما نظرنا إلى يمناك من كتب   فلم نر السيف فيها يسلم القلما

تضافرت ألسن الاقلام فيك معا   وألسن الشر حتى أخرس الأمما

لله منك مليك لا نظير له   لولاك كان وجود الدين قد عدما

ملك بصير بأدواء الأمور له   رأي نجيح وطبٌ يُذهب الألما

عدل الحكومة ماضي العزم معتدل   كالريح يمضي بعدل كلما عزما

سيف وسيب وعفو بعد مقدرة   وبطشه وأناة تجمع الحكما

إن غاب عنك فان الأذن شاهدة   وان تشاهده لم ينطق وقد فهما

الله أعطاه علماً من لدنه فلم   يحتج إلى أحد في علم مَن علما

ومن تخيره للدين خالقه   أعطاه نوراً يجلي الظلم والظلما

سبحان من بجميع الفضل أفرده   ومَن حباه السجايا الغر والشيما

فللورا أن يقول عند رؤيته   ما كان ذا بشراً بل املكا كرما

لاغرو فالحسن في أوصافه تبع   وقد علا بالمعالي ملكه وسما

فالغرب يزهو على شرق البلاد به   وقومه يرهبون العرب والعجما

مولاي يهنيك ما أعطيت من ظفر   على عدا أصبحوا في حيرة وعما

وعن قريب إلى يمناك مرجعهم   فلا يُجازَا امرؤٌ إلا بما جرما

أين المفرُّ وخيل الله تطلبهم   لا يعصم الله مَنهم غير مَن رحما

كم من مضرٍّ يلاقي ما جنت يده   وتائب آئب بالتوبة اعتصما

أنت الامام لبعض السهو تحمله   وبعضه يحبط الأعمال والحرما

وقد كفا الله كفَّ الخائنين وقد   أقال عثرةَ من أخطا وقد رحما

يا بنت فكري ضعي عنك النقاب إذا   بلغتِ حضرتَه ثم انثري النظما

ثم اسجدى فى بساط غير واطئـة	فأصبح الرأس فيه يجهد القدمـا
وذكريه فان الذكر منفعـــة	وذاك فى محكم التنزيل قد رسمـا
من عبده مالكٍ مملوكِ دولتـه	على القديم ، ويرعا السيدُ القِدمـا

وفى سنة ثمان وستين المذكورة أعطا عمر بن منديل مليانة ليغمراسن فسلطنه يغمراسن على مغراوة وعزل أخاه ثابت بن منديل .

وفيها دخل النصارا حصن العرائش وحصن شمس (18) بالسيف فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال وأحرقوها وارتحلوا فى الأجفان .

وفيها كان قتل طلحة بن محلى ليعقوب بن عبد الله بن عبد الحق فى عين الشعراء فى آخر ذى الحجة منه .

وفى شوال منها نازل ابن الأحمر مالقة .

وفى يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وليلة الخميس الخامس والعشرين لذى القعدة من السنة المذكورة نزل ملك الروم الافرنسى مدينة تونس فى مراكب لا تحصا ، فنزلوا فى البر وملكوا حصن القلعة وهم فى أمم لا يعلم لهم عـدد ومددهم فى البحر متصل ، وقيل كان جملة مَن نزلها من فرسان الروم أربعين ألف فارس ، ومن الرماة مئة ألف رام ، ومن الرجال المقاتلة مئة ألف راجل ، فأقام يقاتل تونس الى أن أقلع عنها لعنه الله ميتاً فى اليوم السادس من جمادا الأولا من سنة تسع وستين وستمئة ، وكانت وفاة الافرنسى فـى الخامس والعشرين من ربيع الآخر من سنة تسع وستين المذكورة .

وفى سنة ثمان وستين فى يوم عيد الأضحا منها ولد الأمير مسعود ابن الأمير يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب ، وتوفي رحمه الله بطنجة فى يوم ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وستمئة ودفن بقصبتها رحمه الله وغفر له .

---

18) كان يقع على الضفة الشمالية لنهر لكوس أمام مدينة العرائش بجوار أطلال مدينة لكسوس العتيقة .

السنة التاسعة والستون وستمئة

في أول يوم من شهر رمضان منها خرج الأمير يعقوب من حضرة مراكش بعد أن أقام بها مدة عام وسبعة أشهر فسار الى بلاد درعة لغزو مَن بها من العرب المخالفين له .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب رحمه الله للعرب ببلاد درعة

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

كان العرب قد ثاروا ببلاد درعة وأبادوا رجالَها بالقتل وأموالَها بالنهب وكثر أذاعم في تلك النواحي ،فخرج أمير المسلمين يعقوب لغزوهم من حضرة مراكش ، فشقَّ الجبال والأوعار حتى وصلها في النصف من الشهر المذكور ، فنزل بأول بلاد درعة فقتل من العرب خلقاً كثيراً ، وسبا نساءهم وأموالهم بعد أن حاصرهم بمعقل من معاقل درعة أياماً ، فنزلوا إليه بأمان ولده الأمير عبد الواحد ، فعفا عنهم وأمضا أمانَ ولده وفتح جميع بلاد درعة وملك حصونها ومعاقلها ، ولم يبق ببلاد درعة وأنحائها من أهل النفاق والفساد أحد وأحرزها من العرب ، فبعث بهم الى مراكش وهدن البلاد وأخرج عليها العمال ، وارتحل الى مراكش فدخلها في رابع شوال في السنة المذكورة ، فأقام بها أياماً ثم مرض فلما أفاق من مرضه خرج من مراكش في نصف ذي‌قعدة فسار إلى رباط الفتح في آخر يوم من ذي قعدة المذكور من السنة المذكورة ، فعيَّد به عيد الأضحا وأخذ به البيعة على بني مرين لولده عبد الواحد رحمه الله وجعله ولي عهده .

وكان الأمير عبد الواحد رحمه الله على غاية العقل والذكاء والكرم والنباهة والسياسة والاقدام والحذق والشجاعة وعلو الهمة ومكارم الأخلاق والحلم وإصابة الرأي وحسن التدبير مُحباً في الأدب والتاريخ ذاكراً لكثير من ذالك

مُقرباً للعلماء والفقهاء ، وكان مع ذلك عالماً بأنساب بنى مرين وغيرهم من قبائل زناتة ذاكراً لأيامهم وحروبهم ، يجالس العلماء والفقهاء والشعراء ويذاكرهم واختص بمجالسته ومنادمته ومسامرته جماعة" من أهل الأدب والفقه، منهم الفقيه القاضى الزكي يوسف بن حكم ، وكان من أهل الأدب البارع مشاركاً فى علوم كثيرة أخذ عن جماعة من فقهاء الأندلس وإفريقية وأدبائها ، وولاه الأمير عبد الواحد قضاءَ فاس فجرا بينه وبين والى المدينة شنآن فاستطال عليه الوالى فكتب إلى الأمير عبد الواحد كتاباً يشكو إليه فيه بالوالى وعدوانه عليه ويطلب منه أن يعفيه من خطة القضاء :

أيُسلمنى للردا مالكى	مليك الملوك أبو مالك (19)
وتالله ما أسلمت عبدها	لعدوان عادٍ يدا مالك
فياحضرةَ الجود لا تسخ بى	هديت كفعلك فى مالك
علقت برضوان من عطفكم	وها أناذا فى يدي مالك !

وكان من جلسائه الفقيه القاضى الأديب البليغ البارع علي بن محمد المغيلى .

ومنهم الفقيه الأديب مالك بن المرحل وكان يكتب له الرسائل .

ومنهم الفقيه الأديب أبو عمران التميمى .

ومنهم عبد العزيز الملزوزى .

وكان الأمير عبد الواحد رحمه الله يحب الشعر ويروى كثيراً منه ويأخذ نفسه بنظمه فينظم منه البيتين والثلاثة فى معنا الافتخار ، فمن ذالك قوله رحمه الله :

فرقت فى الميدان كل مليك	وجمعت بين جراءة ونسوك
وجعلت للاسلام حداً مالكاً	كيما يغيره العدا بسلوك

وهو القائل أيضاً يفتخر رحمه الله تعالا :

أجود بمالى لكل العفاة	وأقتحم الهول فى المعضلات

19) كنية الأمير عبد الواحد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق .

أقود الجيوش وأصلا الحـــروب ... وأقتطف الهام بالمرهفـــات
وأحمى بغورى من أن تنـــال ... وأغزو وأنهب أرض العـــداة.

ودخل عليه شاعره عبد العزيز الملزوزى فى يوم من شهر رمضان وهو بقصره بحضرة مراكش كلاها الله تعالا وكان يوما قد استترت فيه السماء بالسحاب والتيار يبكى بالدموع كانه عاشق صد عنه حبيبه وتعطلت دموعه ، وكان الرعد يبدر هدرته ، والبرق يحكى لوعته وزفرته ، وكان المجلس الذى كان فيه الأمير قد فرش بأصناف الرياحين ، والورد والبنفسج والخيرى والياسمين، فقال له الأمير عبد الواحد ياعبد العزيز أرأيت ما أحسن هذا النهار لو كان فى غير شهر الصوم ، ثم أمره أن يقول فى ذالك المعنا شعراً فأنشد ارتجالا على البديهة :

اليوم يوم مدامـة وعقـــــار ... وتبلـغ الآمـــال والأوطـــــار
أو ما رأيت الشمس أخفي نورهـا ... وتسترت عن أعين النظـــــار
وبكا السحاب بدمعه فكأنـــــه ... دنف بكا من شـدة التذكـــــار
والبرق لاح من الغمـــام كأنــه ... سيف تألق فى سمـاء غبـــــار
لا شيء أحسن فيه من نيل المُنا ... بمدامة تبدو كشعلـــــة نـــار
لولا صيام عاقنى عن شربهـــــا ... لخلعت فى هاذا النهار عـــذارى
أو كان يجزى عنه صوم أوفـــدا ... ما صوم شهر فى صيـام نهـــار
لكن تركت سروره ومذاقـــــه ... حتى أكون عليه ذا إقـــــرار

فأمر لـه بخمسمئة دينـار وكسوة ، فأعطـاه الوكيل الدراهم نـاقصة ، وأعطاه الكسوةَ من أثواب خشنة ، وكان الوكيل حاجّاً ، فكتب عبد العزيز إلى الأمير براءة يشكو إليه فيها من فعل الحاج الوكيل ويعلمه بما أمر له به ، وفى أول البراءة هاذان البيتان :

أتظن أن الحاجُ يفعـل صالحـــاً ... لا بارك الرحمـــان فى الحَجَّـاج
إن كانت الحُجَاج طـراً مثلـــه ... لا بارك الرحمان فى الحُجَّـــاج

فلما قرأ الأمير الأبيات ضحك ودعا بالحاجً المذكور فأمره بابدال الدراهم وأن يعطيه كسوة أخرا من رفيع الثياب ويعطيه مئة أخرا من ماله كفارة لما صنع معه .

ومرض عبد العزيز المذكور من حـُمـّا أصابته بمراكش فدخل عليه الأمير عبد الواحد وقد وجد راحة من حـُمـّاه ، فقال له الأمير : كيف أنت ياعبد العزيز من مرضك ؟ وكيف رأيت مراكش ؟ فأنشأ يقول :

لمراكش فضل على كل بلـــــدة   وما أبصرت عين لها من مُشابـــه
وما هي إلا جنة قـد تزخـرفـت   ولكنها حُفـَّتْ لـنا بالمكــاره

ولما أخذ الأمير يعقوب البيعة لولده الأمير عبد الواحد برباط الفتح عظم ذالك على أولاد عمه من بنى عبد الحق ، فسار جماعة منهم من ليلتهم تلك الى جبل أمركو (20) فثاروا به ، وهم محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وموسا بن رحـو بن عبد الحق ، فخرج أمير المسلمين يعقوب فى أثرهـم وبعث لحربهم ولده الأمير الأجل يوسف فى جيش من خمسة آلاف فارس فسار فيها حتى نزل عليهم بجبل أمركو فحاصرهم ، ثم لحق به أخوه الأمير عبد الواحد فى اليوم الثانى من نزوله بجيش من خمسة آلاف فارس أخرا ، ثم لحق بهم والدهم أمير المسلمين فنزل عليهم فى اليوم الثالث بجميع جيوشه من بنى مرين فحاصرهم يوميـن فأذعنوا وطلبوا منه الأمان فأمنهم وعفا عنهم على أن يخرجوا من بلاده إلى تلمسان فنزلوا بأمانه ، وساروا بأموالهم ورجالهم الى تلمسان فأقاموا بها مدة ثم جازوا إلى الأندلس .

وفيها مات علي بن زيان وأخوه وخمسة من بنى مرين .

وفيها جاز التاهرتى إلى الأندلس برسم الصلح بين ابن الأحمر وبين ابن اشقيلولة .

وفيها أخذ الغنش لعنه الله مـَن فى بلاده من المسلمين وثقفهم فـى الحديد وأمر ببيعهم فى دواخل بلاد الروم .

وفيها نزل الغنش الجزيرة الخضراء براً وبحراً ثم أقلع عنها بعد سبعة أيام فى شهر ذى حجة منها .

---

20) جبل شهير بقبيلة فشتالة قرب ضريح مولاى بوشتا الخمار ، بأعلاه حصن منيع من بناء المرابطين .

وفيها جاز وأولاد عبد الحق الى الأندلس فسكنوا رندة .

وفيها سار الأمير يوسف ابن أمير المسلمين إلى سجلماسة فنزل عليها وقاتلها أربعة أيام وارتحل عنها ورجع إلى المدينة .

وفيها توفي الفقيه المحدث القاضى الزكي أبو جعفر المزدغى وولي مكانه القضاء الفقيه أبو عبد الله بن عمران .

وفيها ولي الشريف أبو زيد بن أحمد الجوطى بفاس .

وفيها بعث أحمد ابن الأحمر إلى أمير المسلمين يعقوب يستنصر به ويدعو إلى الجواز إلى الأندلس ، فعزم على نصرته وبعث إلى يغمراسن يطلب سلمَه ويكون معه يداً واحدة فى جهاد الروم ، فامتنع من ذالك يغمراسن وأقسم ألا يصالحه أبداً حتى يأخذ منه الثأر أو يموت دون ذالك ، وكتب بذالك كتاباً من بعض فصوله هاذان البيتان :

فلا صلحَ حتى نروي السيف والقنا ... وتأخذَ عبدُ الوادى منكم بثارها
وأشفى غليلى من مرين التى طغت ... بسبْي غوانيها وقتل خيارها

فلما سمع أمير المسلمين هاذا الجواب عمل على غزوه ، ورفع له فى هاذه الأيام شاعره عبد العزيز الملزوزى قصيدة يمدحه ويحرضه على غزو يغمراسن بن زيان أولها :

أرا كلَّ جبار بسيفك يصغر ... وكلَّ مليك عن فعالك يقصر
وكل عزيز خاضعاً متواضعاً ... وكل يمان عن يمينك يمطر
تنام عيون الناس طراً وأنت فى ... صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
أضاءت بك الدنيا فزال ظلامها ... فأيامُها من نور وجهك تسفر
وكل مليك خضت دار العلا له ... فحسِبْتَه بالسيف ساعة يظهر
وكان لدينا الدين قد ضاع حقه ... ولم يبق منه غير عين تحدر
بعثت إلى يغمور بالصلح معلماً ... وقلت عساه بالبصيرة ينظر
فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة ... فياعجباً من خاسر كيف يحشر

أردت بأن تهديه للرشد والهـدا   وكيف يرا رشداً شقيٌّ مغيـر

فانك لا تهدى مَن احببت للهدا   أتدفع عنه ما عليه مقـدر

أبا الله إلا أن يخصك بالهـدا   ويعطيك فى أخراك ما هو أكثـر

ويحرم يغموراً جهاد عدونـا   ويجعلَه فى بحر بأسك يغمـر

فأسبق به فهو الجهـاد برأسـه   فحتى متى فى الدين يغمور يقصر

فتأخذه قهراً وتملك أرضَـه   فأنت عليه فى الملاحم أقـدر

أينسا نقيض إيسلى ثم وجـدة   ويومَ تلاغ والقنـا تتكسـر

وقد سطعت بيض خفـاف صوارم   وقد حجب الشمس المنيرة أغبـر

ولا شمس إلا وجه يعقوب إذ بـدا   تراه لَدا الهيجاء والحرب مسعـر

ويغمور قبل الحرب يحلف أنـه   إذا ما التقـا الجمعان للأسر يذعر

فلما رأا أسيافكم تستبى الطـلا   وأبصر خيلَ الله كالأسد تـزأر

تولاَّ على أعقابـه مُتحسِّـراً   فأين مضت أيْمانه والتجبـر ؟

أيجحد يغمورٌ فضائلَـك التـى   إذا عددت عند الوفا ليس تحصر

وأنت الذى صيرت الريس فى الوغا ؟   دريساً بكنه فى السباسب أيسـر

وأنت الذى أنقذت درعا من الـردا   وكانت بها الأعراب للنهب تكثـر

قطعت لهم قصداً جبالا تصعَّبَتْ   ترا العيس فيها والسوابق تحبـر

فلما حللت السهل أرسلت ماجـداً   تذل له الأملاكُ ساعةَ يظهـر

بأولاد عبد الحق قد ظهر الهـدا   وصار الندا قد يمم الغرب يقطـر

أتوا قاصدين الغرب والظلم عمّـه   فصار بهم يسبى العقول ويبهـر

وقد قال خير العالمين محـمـد   يكون لكم بعدى لدا الغرب معشر

بهم يعتلى الاسلام بعد امتهانـه   ويرجع فى أثوابه يتبختـر

وأرجو من الرحمان أنكمُ هـمُ   ففى فعلكم هدْيُ المآثر يظهـر

أبا يوسف أنت الغياثُ لديننـا   أولو العلم فى أخبارهم بك بشروا

ستملكها غرباً وشرقاً وقبْلـة   وجوفاً فهاذا كان فى الجفر يذكـر

طليطلة تغزو ويفنا مليكُهـا   وإشبيلية" عما قريب تُذكَـر

مرين ألا قودوا الجيـاد لنهبهـا   وللغزو ياأسد الفوارس فانفـروا

ومَن يكُ ذا بأس كيعقوب والندا   فيظفر بالكفار فهو المظفـر

لقد سكن الأعدا مساجد ربنـــــا — وكان بها قبلُ المهيمنُ يُذكــر
فعادتْ إلى الخنزير والشرك مسكناً — وبوقاتهم فوق الصوامع تزمـــــر
وكم غنموا منا حساناً كواعبـــاً — وغزلان در فى المقاصر تقصـــــر
وكم مقلة أبكوا وكم غـادة سبوا — وكم اغيد أبلوا فكيف التصبـــر
وكم أيتموا منا بنيناً أصاغـــرا — فأكبادنا من حالهـم تتفطـــــــر
يظنون أن الدهر قد نام عنهـــم — وأن علاهم لا تزال تظفـــــــر
أما علموا أن الاله يبيدهـــــم — بجيش مليك نصره متيســـــــر
هو الملكُ المنصور ذو المجد والعلا — أبو يوسف غيثُ المقام المظفـر
فلو قيل للاسلام مَن كنت ترتجي؟ — لَقال لنا يعقوب ذاك الغضنفـــر
بأيامه أعلو على الشرك إنمـــــا — فكم بت أخشا من ظباه وأحـــذر
وما هو للاسلام إلا مهنـــــــد — بنوه له حَلْيٌ أنيق وجوهـــــر
فمَن كأبى الأملاك ؟ مَن مثل يوسف ؟ — تخال الندا من كفه يتفجَّـــــــــر
يزينهم علم وحلم وعفـــــــة — وجود كسيْب الوبـل لا يتعـــذر
فلا زال هاذا الملك فيك وفيهـــم — يحسنه الرحمان لا يتكــــــدر
إليك أمير المسلمين قصيـــــدة — تعجز مَن فى الغرب والشرق يشعر!
ثناؤكم فيها اللآلــيء نُظِّمـــتْ — وذكركم مسكٌ ذكي وعنبـــــر

السنة الموفية سبعين وستمئة

فيها غزا أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق مدينة تلمسان ، فالتقا بيغمراسن بن زيان بالقرب من وجدة فهزمه وأكل جميع محلته ، وتبعه حتى أدخله تلمسان فحاصره بها ثلاثة أيام وثلاثة أشهر .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب تلمسان وملاقاته يغمراسن بن زيان

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

لما عزم أمير المسلمين يعقوب على غزو تلمسان بعث ولده الأمير عبد الواحد إلى مراكش يحشد مَن بها من قبائل العرب وبنى مرين والمصامدة وبنى ورا وغمارة وصنهاجة ومَن بها من الأغزاز والأندلس والروم ، وذالك فى شهر صفر من سنة سبعين المذكورة ، وأخذ أمير المسلمين فى الاستعداد للحركة وفرق الأموال والخيل والعدد فى قبائل بنى مرين وقبائل العرب والأجناد ، فلم يزل كذالك حتى انقضا شهر صفر المذكور ، فلما كان أول يوم من ربيع الأول من سنة سبعين المذكورة خرج من حضرة فاس حرسها الله تعالا فى احتفال عظيم ، وأمر جميع قبائل بنى مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم فى زيهم وأن يظهروا قوتهم ليَغيظوا بذالك أعداءهم ، فخرجت قبائل مرين فى هاذه الغزاة بالجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجوارى المولدات تقودها الرجال فى أحسن زي وأتم جمال ، فسار أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فى جيوشه المنصورة الوافرة ، وجنوده المؤيدة الظافرة ، حتى نزل وادي ملوية ، فأقام عليه حتى انقضا شهر ربيع الثانى ولحق بـه ولده الأمير عبد الواحد فى جيوش عظيمة وحشود كثيرة فى قبائل العرب من حشم وسفيان والخلط والعاصم وبنو جابر وبنو حسان والأثبج والشبانات ورياح ، وغيرهم من الأغزاز والروم فى زي جميل ، واستعـداد جليل ، فأقام رحمه الله بعد وصوله إليه بوادى ملوية ثلاثة أيام حتى ميّز جيوشه ورتب كتائبه وقدم بين يديه قواده وطلائعه وارتحل نحو تلمسان فسار حتى وافاه بها رسلُ ابن الأحمر وكتابُه يسأله أن ينصر الدين ، ويغيث مَن بالأندلس من المسلمين ، ويخبره أن ألفنش لعنه الله قد ضيَّق ببـلاد المسلمين وأباد أهلها بالقتل والأسر والغارات ، مع الأحيان والساعات ، فلما

قرأ الأمير يعقوب رحمه الله كتاب ابن الأحمر خرج إلى خباء الساقة ، فجمع أشياخ قبائل مرين وأمراء قبائل العرب فقرأ عليهم كتاب ابن الأحمر المخبر بتضييق ألفنش على المسلمين واستطالته عليهم بالقتل والأسر والسباء ، وما طلبه منه من إعانة المسلمين بالأندلس ثم استشارهم فى ذالك فأشاروا عليه بصلح يغمراسن وتهدين البلاد وجمع كلمة الاسلام على التقوا والجهاد لنصر الدين وإعانة المسلمين ، فشكرهم على ذالك وقال لهم هاذا والله رأيى ونيتى وقصدى والذى عزم عليه أمرى ، ثم بعث إلى يغمراسن بالصلح شيخاً من كل قبيلة ومن شيوخ العرب يطلبون منه الصلحَ ويرغبون منه فى الموادعة والمسالمة لكي يجوزوا إلى الجهاد آمنين على جهادهم وقال لهم عند وداعهم أعلموا يغمراسن أن الصلح خير كله ، فان جنح إليه وأناب فحسن ، وإن حاد عنه وأبا إلا القتال فبشروه بالنكال ، وأخبروه بالحروب والنزال ، وأسرعوا إلينا بالرجعة والاقبال ، فنسير إليه ، ونستعين بالله عليه ، فسار الصلحاء والأشياخ الى يغمراسن بن زيان فوجدوه آخذاً فى الحركة وقد خرج من تلمسان فأخبروه برسالة أمير المسلمين ولاطفوه فى طلب الصلح بالقول الجميل والحق المبين ، فقال لهم لا صلح بينى وبينه أبداً ولو بلغت فى حربه إلى الردا ، لقد قتل ولدى وقرة عينى وولي عهدى عمر أصالحه وأهدر دَمه ؟ والله لا كان هاذا أبداً ، ولا أترك دم ولدى يمضى سُدًا حتى آخذ منه بالثار ، وأذيق بلاده التبار ، فرجع الأرسال بذالك إلى أمير المسلمين، وأخبروه أنه لا يصالحه ولا يلين ، فدعا الله تعالا فى النصرة عليه والتيسير ، وأسرع نحوه بالرحيل والمسير ، وارتحل أيضاً يغمراسن إلى لقائه ، وأقبل نحوه إلى قتاله ونزاله ، فى قوة واستعداد ، وجيوش ملأت النجود والوهاد ، فالتقا الجمعان بوادى يسلى على مقربة من مدينة وجدة ، فجعل أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ولده الأمير عبد الواحد على ميمنته ، وولده الأمير يوسف على ميسرته، وأعطا لكل واحد منهما طبولا وبنوداً ، وأعطا لكل قبيلة من قبائل بنى مرين راية تقفُ عندها وتلجأ بها حزمها وقدم بين يديه قبيلة من بنى فودود والحشم والأغزاز والأندلس والرماة :

في جحفل يُحْمَدُ يوم الوغـا · في جمعه تفريــق ما يجمــع
بحـر حديـد مـوج أطـلالـه · يـزيد بيضاً وقنـا تلمــع

ووقف امير المسلمين فى الساقة تحت ظلال البنود مع أنجاد مرين وحماتها فالتحم القتال بين الفريقين واشتدت الحروب بينهما واضطرمت والتهبت نيرانها واشتعلت ، والأبطال شمّرت عن ساقها ، ودارت رحاها وحمي وطيسها وتقدم الأمير يوسف بالميسرة للقتال ، وتابعه أخوه الأمير عبد الواحد بالميمنة فاقتحم تلك الأهوال ، وأتا أمير المسلمين والدهما على أثرهما فى القلب والساقة وأقيال مرين وشجعانها بين يديه تقدمه وتحفّ به وعلى يديه وهو تحت ظلال الرايات والبنود ، كأنه البدر حل فى أسعد السعود . وفى ذالك يقول بعض الأدباء من الكتاب ، الملتزمين لخدمة ذالك الباب :

إذا الخيل جالت فى الحروب حسبتهم · قضاء من الرحمان ما منه عاصـم
فذاك على اليمنا يُثير حماتَــه · وذاك على اليسرا فأين المقـاوم ؟
ووالدُهم فى جاحم الحرب بينهـم · يُبيد حماةَ الجيش والسعد قائـم
فويحك يايغمور هل لك منجـد ؟ · أيقظان حس أنت أم أنت نائـم ؟
أفى كل عام تترك ابنك للقنـا · ويُسبىَا لك الغيدُ الحسانُ النواعمُ

فاشتهر القتال بينهما وعظمت الأهوال ، فرأا يغمراسن ما لا طاقةَ له به ، ولا سبيل له بلقائه ، ففرّ منهزماً جريحاً وقتل ولده فارس وجميع مَن كان فى عسكره من الروم ، فلم يفلت منهم أحد ، وكانوا ما يزيد على خمسمئة فارس، فاستؤصلوا عن آخرهم ، وقُتل من بنى عبد الوادى وبنى راشد ومغـراوة والعرب خلق كثير ، وفر يغمراسن جريحاً فى شرذمة قليلة من عشيرته وقرابته، وخرج من تحت ذبابات السيوف وأطراف الذوابل فمر على محلته ومراتبه وقبابه وحرمه وهو يجد السير وفى كبده حر النيران وتركها وسار ، فانحصر بتلمسان ، فكان كما قال الله عز وجل (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المومنين)، ولولا ما حال الليلُ بين الفريقين واتخذ بنو عبد الوادى الليل جملا ، ففروا تحت ظلامه فى الفلا ، لم تبق منهم باقية ، فانتهبت مرين محلة بنى عبد الوادى وأموالهم وسلاحهم وسبوا حريمهم وعيالهم ، وكان على يغمراسن يوم عسير ، باء فيه بالخسران والويل الثبير :

فذالك يوم للشقيّ مذمـــــم به زجر المشؤم طيراً مُذمَّمـــا
تغشته عقبان من الخيل وقـــع وما طال ما كانت على ذاك حومـــا
بكل كميّ في اللقـاء مدجـــج إذا لمح الحرب العوان تبسمـــا
أسود مرين أرعـدت بصليلهـــا وأبدت ببرق البيض كالوشْي معلما

وكانت هاذه الكائنة العظيمة والواقعة الجسيمة فى النصف من رجب الفرد من سنة سبعين وستمئة المذكورة ، وارتحل أمير المسلمين يعقوب من الغد فى أثره ، فوصل مدينة وجدة فوقف عليها حتى هدمت وعفّا رسمها وجعل عاليّها سافلَها ولم يبق لها رسماً وتركها قاعاً صفصفاً ، وارتحل إلى تلمسان فنزل بظاهرها وأدار عساكره بأسوارها وشرع فى قتالها ، وبقِي يغمراسن محصوراً ذا أرق وحنق ، واحتوت مرين على جميع ما بخارجها من القرا والضياع والفواكه والثمار والزروع ، وبثّ أمير المسلمين الجيوش فى جبالها وقبائلها المجاورين لها ، ووصل إليه وهو محاصر لتلمسان أمير بنى تجين صاحب بلاد ونشريس محمد بن عبد القوي التجينى فى جيش كثيف من قبائل تجين بالطبول والبنود والعدد السنية ، فركب أمير المسلمين إلى لقائه فى جميع جنوده وأبطاله فى أحسن زينة وأتم احتفال ، فاشتد الحصار على يغمراسن وضيقت قبائل تجين بتلمسان لأخذ ثارهم من أميرها فقطعوا الثمار ، ونسفوا الآبار ، وخربـوا الربوع ، وأفسدوا الزروع ، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم ، حاشا السدرة والـدوم !

فلما علِم أمير المسلمين أنه قد انتسف بلاده ، وأباد طارفه وتلاده ، وقتل حماته وأجناده ، ولم يترك له بها شيئاً يرتفق به أمر الأمير محمد بن عبد القوي بالرجوع الى بلاده ، فارتحل نحوها وأعطاه أمير المسلمين مما أخذه ليغمراسن ألف ناقة ومئة جواد من عتاق الخيل ومضارب وسلاحاً وخلعاً وودعه وانصرف ، وقعد أمير المسلمين بظاهر تلمسان حتى يعرف أنه وصل إلى بلاده ونشريس خوفاً عليه من يغمراسن لئلا يتبعه ، فان يغمراسن رحمه الله كان من الفرسان لا تؤمن غوائله ، ولا تنسا فى الحروب مكائده ، إذا منّ بعطية أغنت ، ونجدة أعيت ، وحزم وإقدام ، وكرم وإنعام ، وعتو أنسا به الجبابرة ، وطغيان

أربا به على الأكاسرة والأقاصرة ، لكنه مع شجاعته تصحبه النحوس ، ويدرك بدره الكسوف والنكوس .

فلما علم أمير المسلمين أن أبا زيان محمد بن عبد القوي وصل إلى بلاده سالماً أقلع عن تلمسان وكرّ راجعاً إلى المغرب مظفراً منصوراً ، ومات فى هاذه الحركة من بنى مرين علي بن جداز الونجاسنى وعثمان البياضى ويوسف الشيطان وعيسا بن ماسين .

وفيها رفع عبد العزيز الملزوزى الشاعر الى أبى مالك هاذه القصيدة يصف فيها الكائنة والقتال ويمدحه أولها :

أشاقتك أطلالُ الديار الطواسمُ — فقلبك حيران ودمعك ساجمُ
وقفت عليها بعد بُعْد أنيسها — وصبرك قد ولّى ووجدك لازم
بعيداً عن الأوطان تسلى فانها — تُهيّج أشواقَ المحب المعالم
تحنّ إلى سلما ومن سكن الحما — وأين من المشتاق تلك النواعم
إليك فانى لست ممّن تشوقه — معاهد سلما أو سبته المباسم
إذا هامت العشاقُ يوماً بكاعب — فقد بات فى الادلاج فى البيد هائم
لألقا مليكَ الأرض وابنَ مليكها — أبا مالك ليث الحروب العرازم
مذل الأعادى فى سماء عجاجة — بها البيض برق والدماء غمائم
رواعدها صوت الكماة وشهبها — دراري هند تشتهيها الصوارم
بها أرض حرب لا ترا الأرض مثلها — لها الدم غيث والصخور جماجم
إذا طاف شيطان من الأسد حولها — فكفّ أبى الأملاك بالسهم راجم
تحيد رماح الخطب عنه كأنها — على الجسم منه والجياد طلاسم
وما ذاك من قصد الكماة لرميها — ولكنه بالطعن والضرب عالم
تشيم وميض البتر فى كل فيلق — كما شام برق المزن للغيث شائم
أبو مالك ليث الحروب وغيثها — وبدر إذا ما الحرب بالنقع فاحم
ألا أيها الجيش الذى رام حربهم — تنغب الى البلوا فانك نائم
أتطمع أن تلقا ملوكا ثلاثة — وأجسامها قد فارقتها الجمائم
أتطمع أن تلقا ملوكا ثلاثة — لبعضهم تعنو الملوك القمائم

ألست ترا أسد العرين تبيدهم ... وأجسامها قد فارقتها الجماجم

سحائب أطيار ترنم فوقها ... كما سجعت فوق الغصون الحمائم

إذا الخيل جالت فى الحروب حسبتهم ... قضاء من الرحمان ما منه عاصم

أراك على اليمنا تبيد حماتها ... وذاك على اليسرا فأين المقاوم ؟

ووالدهم فى جاحم الحرب بينهم ... يبيد حماة الجيش والسعد قائم

ترا جثثَ الأبطال تسقط بينهم ... سقوط مبانٍ فارقتْها الدعائم

وقد خضب البيض النجيع كأنه ... رقاش وأطرافُ السيوف معاصم

لهام لسام الخائفين كماته ... تريك ضرام النار فيه العزائم

أبا مالك لا زِلتَ للملك مالكاً ... لك السعد بيت والسيوف تمائم

أتاك به يغمور يقدم جمعه ... ولم يدر أن الحَيْن فى الجيش قادم

فمزق ذاك الجيش كل ممزق ... كما مزقت ميتاً بقبر قشاعم

تدور كؤوس الموت فيه عليهم ... أسود بأطراف السيوف تلاطم

وما كان من قاد الجيوش الى العدا ... يقود إلى الأوطان والجيش غانم

إذا لم يكن سعد السعود يقوده ... فماذا الذى يغنى الجيوش المصارم

فمن كان يبغى الملك والمجد والعلا ... تساوا لديه شهدها والعلاقم

إذا شيدوا شيئاً من الرأي بينهم ... فرأيهم للرأي والجيش هادم

كأن كماة الجيش فعل مضارع ... ويترك للأعناق منها جوازم

وتجمعها بالسيف جمعاً مُكسرا ... وجمعك ما بين الكتائب سالم

هنيئاً لكم نصر مبين على العدا ... وطول سعود شأنها متدائم

أمير تلمسان أبدت جيوشَه ... وما هو مظلوم ولا أنت ظالم

فديتك يا يغمور هل لك زاجر ... أيقظان حس أنت أم أنت نائم ؟

أفى كل عام تترك ابنك للفنا ... وتُسْبَا لك الغيدُ الحسان الكرائم

أتيت لأخذ الثار ويحك منهم ... وقلت عسا الأيامُ يوماً تسالم

فخلفت أيضاً للصوارم فارساً ... وليدك لم تشفقْ عليه الضراغم

فها أنت كالعير الذى مر يبتغى ... بحرمانه قرناً فمر يزاحم

فلو أنه قد مرَّ يطلب ما مضا ... لعاد ولم تبصر عليه خياشم

فما المجد إلا حيث أنت ومَن يرد ... سواك لمجد أو علا فهو آثم

فطوبا لمن واليت ياقمر العـــــلا ... وويل لمَن حاربته أنت دائـــــم
وأعلم أنى قد أتيتك مادحـــــــاً ... فسعدى يقظان ونحسي نائـــــم

ولما رجع أمير المسلمين من غزو تلمسان دخل رباط تازة فى أول يوم من ذى الحجة من سنة سبعين المذكورة فعيَّد بها عيد الأضحا وارتحل إلى مدينة فاس ، وقيل بل عيَّد أمير المسلمين عيد الأضحا بكرسيف .

وفيها رجع عامر بن إدريس لتلمسان والمغرب بالعهد والأيْمان .

وفى هاذه السنة ملك أمير المسلمين بلاد الريف .

وفيها وصل القائد أبو الفضل من بجاية .

وفيها هدم محمد بن عبد القوي مدينة البطحاء وهرب سليمان بن عيسا ومَن كان معه فى قصبة ماليق .

وفيها وصل تاشفين بن معطى من رندة إلى مالقة ، فبقي بها ثلاثـة أشهر ، وقتل هو ومَن كان معه .

السنة الحادية والسبعون وستمئة

فى غرة محرم منها دخل أمير المسلمين يعقوب فاس قافلا من غزوة تلمسان ، فأقام بها إلى اليوم الحادى عشر من صفر من السنة المذكـورة ، فتوفي بها ولده الأمير الأجل أبو مالك عبد الواحد رحمه الله يوم الأربعاء ، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ، فتأسف والده عليه لفقده ثم تلقَّا بالرضـا والتفويض ما حكم الله وأمر فى عبده ورجع الى الصبر الجميل ، وعلِـم أنَّ الكلُّ سالك ذالك السبيل .

فلما انقضا شهر صفر الذى توفي فيه ولده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش ، فوصل إلى رباط الفتح فى يوم الثانى عشر من ربيع الأول ، فأخذ به البيعة من بنى مرين بولاية العهد لولده الأمير أبى يعقوب يوسف ، ثم سار إلى حضرة مراكش ، فدخلها فى نصف ربيع الآخر منها ، فقعد

بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس فهدنها ، وبعث وزيره فتح الله بن عمر السدراتي في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى عرب المعقل فغزاهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بتيدسي ، وذالك في شوال من السنة المذكورة .

وفي شهر شعبان منها خرج أمير المسلمين يعقوب من بلاد السوس فدخل مراكش وأقام بها حتى أهلّ هلال رمضان فارتحل عنها الى رباط الفتح فعيّد عيدَ الفطر ، وارتحل الى مدينة طنجة فنزل عليها وحاصرها وشرع في قتالها ، ونزل عليها في أول من ذى حجة من سنة إحدا وسبعين وستمئة المذكورة وأقام عليها محاصراً لها ملازماً قتالها غدواً ورواحاً مدة ثلاثة أشهر وفتحها .

وفي سنة إحدا وسبعين المذكورة في اليوم السادس والعشرين من جمادا الآخرة توفي الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن نصر المعروف بابن الأحمر صاحب الأندلس ، فكانت أيام ولايته ثلاثاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وأربعه أيام .

وفي شعبان منها توفي الوزير أبو عمْر ابن أبى خالد بمراكش .

وفيها هزم الملك الطاهر صاحب مصر والشام التطر بالقرب من نهر الفرات ، وقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصا وحضر معه في هاذه الغزاة مزروع بن جابر العبد الوادى .

وفيها توفي علي بن ياسين اليابانى قتله أولاد تاشفين .

وفيها نزل ابن الأحمر على انتقيرة .

وفي نصف شهر صفر منها ولد إبراهيم بن يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب رحمه الله .

السنة الثانية والسبعون وستمئة

فيها فتح أمير المسلمين يعقوب مدينة طنجة وأحوازها .

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

كانت مدينة طنجة منذ قتل وليها محمد بن الأمير وولي الأمير أبو بكر بها وذالك فى سنة خمس وستين وستمئة قد ملكها الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة فضبطها وقام بأمرها مع أشياخها ، فلما نزلها أمير المسلمين وطال عليها الحصار شرع فى البناء عليها فبنا جزءاً من البنية المنصورة فضاق ذرع أهلها لأجل ذالك ، ثم إن أمير المسلمين عزم أن يرتحل عنها ويترك عليها جيشاً مع ولده الأمير يوسف فبينما هو واقف أمامها فى عشيّ اليوم الذى كان عزم على الرحيل فى غد منها والناس يقتتلون بين يديه وقد جنحت الشمس للغروب إذا قائد رماتها مع عصابة من جماعته قد قاموا فى برج من أبراجها وكان القائد يعرف باللجى فعقد راية بيضاء ورفعها فى البرج المذكور شعاراً لذالك وأشاروا إلى أهل المحلة فبادروا نحوه وأسرع اليه المقاتلون فنصبوا السلالم وصعدوا معهم فملّكوهم البرج ، فأقاموا يحاربون أهل المدينة طول ليلتهم ، فلما كان من الغد تكاثرت عليهم الرجال والرماة من المحلة ونصبت السلالم من كل ناحية فانهزم أهلُ البلد وتركوا الأسوار ، وركنوا الى الفرار ، وركب أمير المسلمين وضربت الطبول ، فدُخِلت المدينة على أهلها فعفا أمير المسلمين عنهم وأمّنهم ونادا مناديه فى أسواقها وشوارعها بالأمان العامّ لجميع أهلها ، ولم يمت بها فى حين الدخلة إلا نفر يسير من المقاتلين الذين رفعوا أيديهم وأشهروا سلاحَهم ، وكان فتح مدينة طنجة ودخول أمير المسلمين يوسف إياها فى ضحا يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين المذكورة .

ولما فرغ أمير المسلمين من أمر طنجة المذكورة وأصلح أحوالها بعث ولده الأمير يوسف الى حصار سبتة ، فسار إليها ونزل عليها بالموضع المعروف بأفراك (21) فأقام عليها أياماً يقاتلها وقطع عنها جميع ما كان يأتيها من البرّ من المرافق والبوادى ، فصالحه صاحبها الفقيه أبو القاسم العزفي على هدية يبعثها له فى كل سـ من الأخبية والسلاح والثياب ، وكتب ببيعته

---

21) يقع مكان أفراك فى مدخل مدينة سبتة عن يسار الآتى اليها من تطوان ، وقد ضمت السلطات الاسبانية المحتلة سوره المريني سنة 1970 .

إليه ، فقبل منه الأمير يوسف وارتحل عنه الى والده فسار معه الى مدينة فاس فدخلها فى آخر جمادا الأولا من سنة اثنتين وسبعين المذكورة ، فأقام بهـا شهريْن وخرج منها إلى مراكش ، فوصل فى شهر رمضان ، وعيَّد بها عيد الفطر وخرج منها إلى تادلة فأقام بها بقية شوال وشهر ذى القعدة ثم سار منها إلى سجلماسة .

وفيها أعطـا عائد بن منديل وأخوه ثابت إلى يغمراسن بن زيـان تنس وأحوازها .

وفيها توفي سليمان بن عيش بالأندلس .

وفيها فى أاخر ذى القعدة منها نزل أمير المسلمين يعقوب سجلماسة وحاصرها حتى فتحها .

السنة الثالثة والسبعون وستمئة

فيها توفي الفقيه الصالح إمام القرويين علي بن محمد بن حمد ودفن بخارج باب الكَيسة من أبواب فاس رحمه الله ونفعنا به .

وفيها تقدم الفقيه أبو يحيا بن أبى الصبر إماماً بالملك الناصر يوسف بن أمير المسلمين يعقوب .

وفيها بُني سور مدينة فاس على يد عامل الرباط إبراهيم بن عيسا الأشقـر .

وفيها توفي أبو هلال عياد صاحب بجاية .

وفيها فتح أمير المسلمين يعقوب مدينة سجلماسة وما والاها من الصحـراء .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب سجلماسة وحصارها وفتحها وجميع أحوازها

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

سار أمير المسلمين إلى فتح سجلماسة من مراكش وذالك فى شوال من سنة اثنتين وسبعين ، فسار إلى تادلة ثم إلى سجلماسة ونزلها ، وكانت سجلماسة فى يد يغمراسن بن زيان وعرب المنبات القائمين بها بدعوة يغمراسن المذكور ، فكان يغمراسن يبعث إليها فى كل سنة ولداً من أولاده لضبطها وحمايتها وضبط خراجها ، فسار أمير المسلمين يعقوب فى جيوش بنى مرين يصحبه السعد والتمكين ، ويقدم رايته النصر والفتح المبين ، فنزلها بجنود قد ملأت الأرض وعساكر تضيَّق بها الفضاء فى الطول والعرض ، كما قيل :

عساكر من مرين ما لها عدد — وكلهم فارس الهيجاء ذو كرم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا — وهم أذلّوا ملوكَ العربِ والعَجَم

فحاصر سجلماسة وأدار بها قبائل مرين والعرب والأغزاز والروم والرماة ، وشرع فى قتالها ونصب عليها المجانيق والرعادات وآلات الحرب ، وضيَّق عليها وقطع عنها جميع المرافق فضاق أهلها ذرعاً من شدة القتال والحصار ، وكان سفهاؤهم يصعدون على الأسوار فيسبّون ويلعنون بالقبيح من القول ، فهتك المنجنيق من أسوارها برجاً ومسافة ، فانهدم البرج والمسافة والناس يقتلون فدخلت من تلك المسافة عنوة بالسيف على قائدها عبد الملك العبد الوادى ، فقُتل هو ومن كان معه من بنى عبد الوادى وعرب المنبات ، وصُلِبوا على أسوارها ، ودخلها أمير المسلمين فأمَّن سائرَ أهلها وعفا عنهم ، ونظر فى مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم ، وأقام بها حتى هدنها وسكَّن أحوازها وأوديتها وقدم عماله وارتحل عنها راجعاً على طريقه إلى

مراكش ، وكان فتحه لمدينة سجلماسة يوم الجمعة الثالث من ربيع الأول المبارك من سنة ثلاث وسبعين وستمئة ، وقيل كان فتحها فى آخر يوم من صفر من العام المذكور .

فلما رجع أمير المسلمين يعقوب من فتح سجلماسة واستقرٌ بحضرة مراكش وقد تمَّ له جميعُ ملك المغرب سمتٌ به همتُه العلية وذاته الكريمة السنية إلى الجهاد ، إذ لم يبقَ له منازع فى البلاد ، فسار إلى مدينة سلا لينظر في أمر الجهاد ، فوصله أن أبا طالب العزفى وصل إلى فاس ليجتمع به ، فسار فاجتمع بها مع أبى طالب فى مصالحه وصرفه إلى سبتة .

وفيها وصل أشياخ بنى عبد الوادى بالهدية الى فاس .

وفيها وصلت بيعة الرئيس ابن اشقيلولة .

وفيها بنا علي بن يوسف بن يرجاسن حصنَ بنى بلقيس من أحواز مالقة بالقرب من ذكوان .

وفيها فى شوال اتصل به ما هي عليه بلاد الأندلس من الضعف ، ومكاثرة العدو وشدة الخوف .

وفيها ورد عليه كتاب الأمير أبى عبد الله ابن الأحمر يخبره بحال المسلمين وما هم فيه من الخوف والقتل والأسر ، ونص الكتاب الذى بعثه ابن الاحمر من أوله الى آخره :

بسم الله الرحمان الرحيم   صلا الله على سيدنا محمد وسلم

إلى الملك المؤيد بفضل الله العادل الهمام ، ذى الشيم المحمودة والاهتمام ، أمير المسلمين وناصر الدين المجتهد فى إقامة دعوة الحق ، أبى يوسف ابن عبد الحق، نور الله تعالا به الآفاق ، وجمل ببهائه الجيوش والرفاق، من وليه ومحبه فى الله تعالا المستجير برحمة الله تعالا وعونه ، والمبتهل له بالدعاء فى ائتلاف كلمة الاسلام وصلاح شأنه ، محمد بن محمد بن يوسف ابن الأحمر ابن نصر .

سلام على حضرتكم العلية ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فان الله تعالا أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات والاختلاف ، وأنعم على عباده بدولتكم السنية ، وإظهار جنودكم المرينية، الذين هم فى حرب الأعادى أولو باس شديد :

مرين جنود الله أكبـــر عصبـــــة	فهم فى بنى أعصارهم كالمواســم
مشتقة أســماءهــم بمدائــــــح	مسورة أيمانهــم بالصــــــــوارم

فطول علينا بمعلوم حدك ، ومشهود جدك ، وقد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلقك سُلَّماً إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العـدو النصرانى على بلاد الاسلام ، واهتضم جنابها كل الاهتضام ، وقد استخلص قواعدها ومزق بلدانها وقتل رجالها ، وسبا ذراريّها ونساءها ، وغنم أموالها ، وقد جاءنا باقراره وإرعاده ، وعُدده وأعداده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقِي بأيدينا من المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان ، وقد وطأ الله لك ملكاً عظيماً ، شكرك الله عـلى جهادك فى سبيله وقيامك بحقه واجتهادك فى نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله مَن يشترى الجنات بنفسه ، ويحضر الحرب باماته ، فان شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتُها عالية ، وإن أردت الآخرة فهاجهاد لا يفتـر وهاذه الجنة اذخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين ، فقد قال تعالا وهو أصدق القائلين : (قاتلوهم يُعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مومنين) ، والله تعالا يجمعنا على كلمة التوحيد ينصرها ، ونعمة الاسلام بالملك يشكرها ، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها .

والسلام الموصول المبارك على أمير المسلمين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصله هاذا الكتاب وجده عازماً على الجهاد والرباط ، وقـوي العزم فى ذالك أي اغتباط ، حريصاً على الغزو والجهاد والجواز ، ليستأهل

بذالك الجنة يوم المفاز ، ثم تتابعت عليه الرسل من ابن الأحمر وابن اشقيلولة، يقولون له ياأمير المومنين أنت مليك الزمان ، والمنظور اليه فى هاذا الأوان ، وقد وجب عليك نصرُ المومنين وإغاثةُ المسلمين ، وجهاد أعداء الله الكافرين ، فان لم تنصر الاسلام فمَن ينصره ؟ وإن لم تتدارك هاذا الصقع الأندلسى فمن يعمره ؟ وكان الشيخ أمير المسلمين ابن الأحمر قد أوصا ولده الأمير أبا عبد الله عند وفاته أن يستدعي أمير المسلمين يعقوب إلى الجواز إلى الأندلس ، وأن يبذل له ما يريده من الحصون والبلاد ، وكتب براءة بخط يده يستنصره ويستعيث به فيها ، وقال له : يابني إذا أنا مت ابعثْ بهاذه البراءة الى ملك العدوة أمير المسلمين يعقوب وادعُه للجواز والجهاد ، فانه ناصر هاذه البلاد ، فبعث له ابن الأحمر البراءة التى كتب له والده عند وفاته فلبًّا أمير المسلمين دعوتَهم ، وأجاب استغاثَتهم واستنصارَهم ، وكتب إليهم جوابَ كتاب استنصارهم رسالة من بعض فصولها :

شكواكم رحمكم الله وأعانكم وأيدكم بتأييده ونصركم عندنا من احتراق القلوب ألم" أو أرا نصركم بوجد ونار لا يطفئه إلا من يناسب دعاء العداة ، يوم تجوس خلالها الأبطال من الحماة والكماة ، وعزم لا يناله إلا التمتع فى دار العدا بالنهب والقتل ، وليس إلا نشيد العزم وتأسيسه ، وباحته بالقلوب وتعريسه ، حتى يصل إلى حدرته فنجرعه من الموت كؤوس ، ونرفل من الغزو فى شموس ، وتجادله فى عز دار تنمو بذالك دار المقامة يوم التناد ، والفوز يوم المعاد ، وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، وسُقِيَ بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدمَ عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكاره ويذهب عسرها فلتطبْ نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم فى أثر هاذا إن شاء الله ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه ونفدُ عليكم بأنصار الدين وأودائه ، وصحبتنا قوم باعوا انفسهم من العزيز الوهاب بجزيل المواعد ، يعملون فى مرضاته الأسنَّة والسيوف القواضب ، ويصبون على الكفار العذاب الواصب ، يركبون اليكم ثبجَ هاذا البحر الأخضر عازمين على الجهاد ، وحر الجلاد ، لا ظل لهم فى الهواجر إلا ظل القنا وورود الثماد ، عند انصرام شهر المحرم من سنة أربع

وسبعين وستمئة نجوز إليكم وذالك أوان ظهور النبات واهتـزاز الأرض بالخيرات ، فأعدوا للقاء ما نُعد ، واستعدوا للقتال وتوكلوا على الله مثلما نستعد ، لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنه لا تأثير لعبد إلا بالله ، وإياكم وإيانا من الاعجاب بالكثرة والعدد ، فان الله تعالا يقول : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئاً) ، والله يعيننا وإياكم ، ويحسن محيانا ومحياكم ، والسلام عليكم .

ولما وصل كتاب أمير المسلمين إلى ابن الأحمر وقرأه سرَّ به وبعث بنسخته إلى مَن بالمدينة برسم الجواز الى الأندلس للجهاد .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب من فاس برسم النظر في أمور الأندلس والجواز إلى الجهاد

قال صاحب التاريخ رضي الله عنه :

لما تواترت الرسل وتتابعت الكتب على أمير المسلمين يعقوب رحمه الله من ابن الأحمر وابن اشقيلولة يستنصرون به ويستدعونه إلى الجواز والجهاد خرج من مدينة فاس مُلبياً دعوتهم ، وقاصداً نصرتهم ، فى النصف من شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وسبعين وستمئة المذكورة ، فسار حتى نزل مدينة طنجة ، فكتب منها إلى الفقيه أبى القاسم العزفى صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان الغزوانية لجهاد المشركين فى البحر وتيسير المراكب وإعدادها بقصر الجواز (22) لتجويز المسلمين المجاهدين ، ثم دعا بولده أبى زيـان فعقد له على جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد مرين وأعطاه طبولا وبنوداً ومالا وعدداً وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، ثم عقد له رايته المنصورة ليقدمها بين يديه ، وأوصاه بتقوا الله تعالا فى سره وجهره ، ودعا له ووجهه ، وانصرف

22) قصر الجواز ، وقصر المجاز ، وقصر مصمودة هو المسما اليوم بالقصر الصغير الواقع على ساحل مضيق جبل طارق بين سبتة وطنجة .

الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز ، فوجد الفقيه أبا القاسم العزفي رحمه الله قد اتخذ له هنالك عشرين جفناً بغزاتها ورماتها وعددهاميسرة لتجويز المجاهدين ، فركب الأمير أبو زيان البحر هو وجميع جيوشه من قصر المجاز ، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس ، وكان جوازه رحمه الله في السابع عشر من شهر ذي حجة من سنة ثلاث وسبعين المذكورة ، فأقام الأمير أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر ، ثم خرج منها إلى الجزيرة الخضراء فقشعها وبعث بالغنائم إلى الجزيرة ، ووالى السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش ، وهو يقتل ويسبي ويخرب ما مرّ عليه من القرا والحصون والبروج ويفسد الزرع ويقطع الثمار وينسف الآثار ، ولم يقدر أحدٌ من الروم أن يخرج إليه ولا أن يصده عن قصده ، ثم قفل بالغنائم والسبْي إلى الجزيرة فدخلها والروم بين يديه في القطائن (23) والأغلال ، والنساء والذرية يقادون في الحبال ، ففرح أهل الجزيرة بقدومه وقوي إيمانهم .

وكانت بلاد الأندلس من وقعة العقاب التي هزم فيها المسلمون مع الأمير الناصر الموحدي في سنة تسع وستمئة لم تنشر بها للمسلمين راية حتى جاءت رايةُ أمير المسلمين يعقوب المنصور ، وكان أهل الأندلس قد خامرهم خوف الروم وامتلأت قلوبهم رعباً منهم ، فكانوا لا يستطيعون قتالهم ولا يقدرون أن يواقفوهم ساعة فملك الروم أكثر بلادها وقواعدها وحصونها ومعاقلها ، فلما جاء الأمير أبو زيان براية والده المنصورة أعزه الله تعالا بجوازها وأعز بها الاسلام وأيد بها حزب الايمان ، وأذل بغرتها عبدة الأصنام والأوثان .

وفي أول ذي حجة من سنة ثلاث وسبعين المذكورة أعطا الوزير ابن هشام الجزيرة لأمير المسلمين ، فدخلها الأمير أبو زيان والغنائم بين يديه ، وجاز الوزير ابن هشام إلى أمير المسلمين للعدوة فلاقاه بوادي قشوش من أحواز طنجة ، وفي هاذه الأيام توفي الرئيس فرج بن أبي محمد اشقيلولة .

---

23) جمع قطينة ، وهو القيد الذي تغل به الأيدي ، وملزمة يضغط بها على الخشب المغراة في عرف النجارين .

ولما جاز الأمير أبو زيان إلى الأندلس بعث أمير المسلمين حفيده تاشفين بن الأمير عبد الواحد إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يطلبه فى الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجوز إلى الأندلس آمن الروعة من بلاده ، فأسعفه يغمراسن بمطلبه ، فتم الصلح بفضل الله بينهما على المراد وجمع الله تعالا كلمة الاسلام ، وألّف بين المسلمين ونفا عنهم التحاسد والتنافس والاظلام ، فلما وصل الأمير تاشفين بن الأمير عبد الواحد من تلمسان وقد تمّ صلحُه مع يغمراسن بن زيان سر أمير المسلمين يعقوب بذالك سروراً عظيماً وأخرج الصدقات ، فتصدق بمال جزيل فى جميع بلاده شكراً لله تعالا على ذالك ، ثم كتب الكتاب وأخرج به للرد إلى أشياخ بنى مرين وأمراء العرب ورؤساء قبائل أهل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناتة يستنفرهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز .

السنة الرابعة والسبعون والستمئة

فى أول محرم منها ارتحل أمير المسلمين يعقوب إلى قصر المجاز فنزل به وأخذ فى تجويز أجناده وأهل دواره ، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة ، وطائفة بعد طائفة ، فكانت المراكب والسفن غاديـات ورائحـات آناءَ الليل وأطرافَ النهار من قصر المجاز إلى طريـف يزدحمون فى ذالك المعبر :

فالمرسلات تبهوق العاديات الـى — غزو العداة وتجويز صباح مســا
كأنما البحر أضحا للجياد مــدا — وكل شعبة مـاء حُولت فرســا
كأنما اقترب البرّانِ واتصــلا — فصار ذاك طريقة للورا يبســا

فلما تكامل الناس بالجواز واستقروا ببلاد الأندلس وانتشرت عساكر المسلمين بها من مدينة طريف الى الجزيرة الخضراء جاز أمير المسلمين يعقوب فى آخرهم فى خاصته ووزرائه وخدام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب وكان جوازه رحمه الله فى ضحا يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر صفر من سنة أربع وسبعين المذكورة من قصر المجاز على حين غفلة من الناس ولم

يشعر بجوازه أحد" حتى طلع فى الجفن، فسهّل الله عليه الجواز وهون عليه ركوب البحر ، فخرج بحجر الأيل من سواحل الأندلس ، وكان أهل العلم بالحدثان يقولون إن الاسلام ينصر بالأندلس على يد ملك يعبر اليها البحر من العدوة ويخرج بحجر الأيل من غير قصد ولا رؤية ، وهاذا من عجيب الاتفاق ، فسار من حجر الأيل إلى طريف فصلاً بها الظهر وارتحل من يومه ذالك إلى ناحية اللاطنة، فاجتمع هنالك مع ابن الأحمر والرؤساء بنى اشقيلولة بعساكرهم ينتظرون ، فتلقوه وسلّموا عليه وفرحوا بقدومه واهتـزت بـلاد الأندلس بجـوازه .

وكان بين ابن الأحمر وبين ابن اشقيلولة ضد" ومنافسة وشحناء فازالها وأصلح بينهما ، واجتمعت بحول الله تعالا كلمة الاسلام ، وتألفت قلوبهم على التقوا وجهاد عبدة الأصنام ، فتفاوضوا فيما يصلح المسلمين ، وكيف يكون وجه العمل فى جهاد عبدة الأصنام ، فأقاموا معه ثلاثة أيام وانصرف ابن الأحمر إلى غرناطة غير راض ، وسار بنو اشقيلولة الى مالقة ، وارتحل أمير المسلمين يعقوب آخرهم فى خاصته ووزرائه وخدام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب .

وكان جوازه رحمه الله فى ضحا يوم الخميس فى اليوم الرابع بجميع جيوش المجاهدين من العرب وبنى مرين ، قاصداً الجهاد الكافرين ، لم يقعد ولم يثبت ، ولم يبال بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلّف ، ولم تستطب جفونه مناماً ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً ، ولم يزل يجدّ الرحيل ويوالى المسيرة ، حتى وصل إلى الوادى الكبير ، مخافة أن يشعر الروم أو ينذر به نذير ، فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على مقدمته وقدّمه بين يديه مع الأدلاء فى جيوش من خمسة آلاف فارس من أنجاد بنى مرين والعرب ، وأعطاه الطبول والبنود ، فتقدم والدَه بمرحلة ، وسار هو فى أثره فى جميع جيوشه ، فانتشرت عساكر المجاهدين فى أرض المشركين كأنها السيول الطامية أو الجراد المنتشر ، لا يمرون بقرية إلا خربوها ولا بشجرة إلا قطعوها ، ولا بزرع إلا حرقـوه وأفسدوه ، ولا بمال إلا غنموه وأكلوه ، حتى أتوا على جميع ما بتلك النواحى

من القرا والمدن ، وقتلوا جميعَ مَن وجدوا بها من الرجال ، وسبوا الذراريَ والعيال ، ثم والا السيرَ إلى بلاد الكفرة حتى وصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية يقتل ويسبى ويهدم ويُخرب حتى دمر جميع ما مرَّ عليه من البلاد ، وقتل ممَّن بها من الروم ألوفاً لا تحصا لها أعداد ، ودخل ستاً من القرا بالسيف فهدمها وأضرمها ناراً ودخل حصن بلمه عنوة بالسيف ، ولم يحي من رجاله أحد ، وغنم المسلمون جميع ما كان به من الأموال والذرارى والعيال ، وامتلأت أيدى المجاهدين بالغنائم ، ثم سار رحمه الله إلى أحواز قرطبة أعادها الله للاسلام ، ودوخ تلك البلاد بالقتل والسبي ، ثم أمر رحمه الله بالغنائم فجمعت فاجتمع من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والنساء والذرية والسلاح والعدد والثياب ما ملأ السهلَ والوعر ولا يحويه عدد ولا حصر ، ثم أمر بها فقدمت بين يديْه ، وقدم عليها أمناء يحفظونها ، وأفسد كلَّ ما مرَّ عليه من البلاد بالحرق والهدم والخراب ، وأضرم النيران فى الزروع حتى صارت البلاد كالشفق ، ولم يبق بها زرع ولا نبات الا احترق ، واجتمع السبيُ على سبيل العادة وفاضت الغنائم فيض النيل ، فسار أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه وقد ملأت الأرض طولا وعرضاً حتى وصل الى أسِتجة جبرها الله للاسلام ، فوصل إليها وبرز عليها بجيوشه المنصورة وعساكره المظفرة وصعد أهل أسِجة على الأسوار ينظرون إليه والغنائم تجوز أمامهم على باب المدينة والروم فى السلاسل والنساء فى الحبال وأهل البلاد ينظرون إليهم ويصيحون وينوحون ، وارتفعت أصوات المسلمين باعلان الشهادة والتكبير ، وكان يوماً على الكافرين عسير ، فبينما هم كذالك إذ أقبل رجل بدويٌ من أهل الأندلس الى أمير المسلمين فأخبره أن النصارا دمَّرهم الله قد حشدوا واجتمعوا كبيرهم وزعيمهم دون نو نيو دىلارا وأنه قد خرج فى أثر المسلمين فى جيوش عظيمة ، وجنود جسيمة كثيرة ، لا يحصا عددهم وهم لاحقون بك ، ومستعدون الى حربك ، واستنقاذ غنائمهم من يديك ، فتأهب للقائهم ، وكن على حذر من أمرهم ، والله يؤيدك وينصرك عليهم ، قال : فاستبشر أميرُ المسلمين بمقاله ، وقال نرجو من الله أن يظفرنا بهم وبجنودهم وأقيالهم .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب وملاقاته مع دون نونيو دي لارا أمير النصرانية وما منح الله فيها المسلمين من النصر على الكافرين

قال المؤرخ لأيامهم :

فلما وصل أمير المسلمين يعقوب رحمه الله إلى مدينة أستجة ونزل عليها بجنوده وطبوله وبنوده وبما أفاء الله عليه من غنائم الروم اذ أتاه النذير باقبال دون نونيو كبير النصرانية وزعيمها إلى حربه بجموع الروم وحشودها فى ثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل ، فدعا أمير المسلمين أشياخ قبائل مرين وأمراء العرب وقواد الأندلس والأغزاز ومَن فى عسكره من الفقهاء والصلحاء والقبائل وأشياخهم المطوعين ليشاورهم كيف يكون العملُ فى لقاء العدو المقبل إليهم اتباعاً لأمر الله تعالا واقتداءً بسنة رسول الله صلا الله عليه وسلم إذ هي الصفة المحمودة التى مدح الله بها هاذه الأمة لقوله تعالا (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقوله تعالا (وشاورهم فى الأمر) ، فاستشار أولا أشياخ بنى مرين ثم أشياخ العرب ثم أشياخ المطوعة ثم قواد الأندلس والأغزاز ، كل يقول بما ظهر له من القول والنصيحة للمسلمين .

فلما أخذ رأيهم أمرهم بالاستعداد للقاء العدو والصبر والثبات عند اللقاء ، فبينما هم كذالك إذ نظر الناسُ إلى طلائع جيوش الروم قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل واللعين دون نونيو دي لارا فى وسط الجيش ، وكان ألفنش أخزاه الله حزَمه بيده وزوجه ابنته وفوضه على جيوشه وحروبه ، وفوض إليه الأمر فى جميع بلاده وجنوده ، وكان النصارا دمرهم الله قد سعدوا به لأنه كان لم ينهزم قط ، وكان مع ذالك وبالا على بلاد الاسلام شديد الوطأة عليها ، قد أبادها وفتح أكثرها ،

لا يفتر عن القتال والسبي والقتل فى كل الأوقات ومرور الأيام ، فأقبل اللعين إلى أمير المسلمين تحت ظلال البنود والأبواق ، تخفق على رأسه فى جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد ، والرجال والرماة أمام الجيوش وكلهم قد أعدوا للحرب أوزارها ، وزعموا أنهم حجابها وأوزارها ، ولبسوا لها أسنا العدد ، واعتمدوا على الكثرة ووفور العدد ، وتدرعوا بالمصفحات من الحديد والزرد النضيد ، والمغافر واظهر أهلُ شنتمرية ، حمية الجاهلية ، فلما عاين أميرُ المسلمين من حالهم فى إقبالهم أمر بالغنائم فقدمت بين يديه وبعث معها ألف فارس من بنى مرين وألف راجل من المجاهدين المطوعين ، وتأخر هو ومَن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال الكافرين ، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه وصلاً ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، فكان فى آخر دعائه ما دعا به النبي (ص) يوم بدر للصحابة (اللهم انصر هاذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها) فأجاب الله تعالا دعاءَه ورحم تضرعه وابتهالَه ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوا على جواده ، واستعد للقتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادا على المسلمين فقال : يامعشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذابئون عن حماه والمقاتلون عداه ، وهاذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم، له ما بعده ، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، وزينت حورها وأترابها ، فبادروا اليها ، وجدوا فى طلابها ، وابذلوا النفوس فى أثمانها ، الا وان الجنة تحت ظلال السيوف ، .وان الله اشترا من الومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغتنموا هاذه التجارة الرابحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمَن مات منكم مات شهيداً ، ومَن عاش رجع الى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ، فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

فلما سمعوا منه هاذه المقالة ، تاقتْ أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للوداع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت نفسه بالموت ، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال

المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم ، فالتقا الجمعان ، حزب الله وحزب الشيطان ، والتحم القتال ، واشتدّ النزاع وعظمت الأهوال ، وقسم اللعين دون‌نونيو جيوشه على خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت والحمد لله خاسرة ، وأقبلت الروم بدفعتهم إلى المسلمين فتلقاهم المجاهدون بقلوب صابرة ، ونية صادقة ، فلا ترا إلا السمر تهوى فى الروم كأنها الشهبُ الثواقب ، والبيض تفعل فى أعداء الله فعل العذاب الواصب ، والسيوف بالدماء ترعف ، ورؤوس الكفرة عن الأجساد تقط وتقطف :

مـا دبّ للاسـلام منهـم دارج	إلا وصُبّ عيلـه منه عقـاب
أوجـاء مسترقـاً إليـه مـارد	إلا وأحرقـه هنـاك شهـاب
أو فـارق المعمـود منهم صنفـه	يومـاً فكان له إليه إيـاب

فدارت بهم فرسانُ المجاهدين ، من العرب وبنى مرين ، كالآساد الضارية إذا برزت من العرين ، يحكمون فى رقابهم السيوف ، ويذيقونهم مرارات الحتوف ، وقد صبروا لجهاد الكفرة صبر الكرام ، فى حرب اللئـام ، وقتل زعيم الكفرة دون‌نونيو وولده وهزم جيشه وقتلت جموعه، وأنجز الله تعالا وعده لعباده المومنين ، وأيدهم بملائكته المُسوّمين ، ونصر دينَهم على أعدائه الكافرين ، واستأصلهم المسلمون بالقتل ، ولم يكن إلا كلمح البصر حتى لم يُبق السيفُ من الروم مَن يرجعُ لقومه بالخبر ، ولم تُبق الرماح منهم باقية ، ولم تق الدروعُ والمجن عنهم واقية ، وقطع رأس اللعين فى الحين وتكسرت أعلامه ونهبت عساكره ، وحمد اللهَ أمير المسلمين على ما منحه من الفتح المبين ، وأمر بجميع القتلا تقطع رؤوسهم وإحصائهم لعددهم ، فقطعت الرؤوس وجمعت فكانت ثمانية عشر ألف رأس ونيف ، وطلعت رؤوس الروم مثل الجبل العظيم ، فصعد المؤذنون عليها فأذنوا بصلاة العصر ، فلما سلم المسلمون من صلاة العصر افتقد أميرُ المسلمين جيوشه ونظر مَن استشهد منهم فى تلك الغزاة ممَّن سبقت له الشهادة وقُضِيَ له بالجنة والسعادة ، فوجد ستةَ نفر من بنى مرين، وسبعة من العرب وثلاثة من الأندلس، وثمانية من المتطوعين، فكانت جملتهم أربعة وعشرين رجلا ، فأمر المسلمين بدفنهم ومواراتهم وتعفية آثار قبورهم ، ثم أثنا على الله وشكره ، وأطال حمده وذكره ، وكانت هاذه

الغزاة العظيمة ، والنعمة السابغة الجسيمة ، التى أعز الله بها الاسلام ، وأذل بها عبدة الأصنام ، فى يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الأول المبارك الذى من سنة أربع وسبعين وستمئة .

وجاهد أمير المسلمين يعقوب فى هاذه الغزاة حق جهاده ، ونشر دين الله هو وجنوده وحفدته وأولاده ، وباشر الحرب بنفسه فقتل من الروم عدداً بيده ، ورفع الله بهاذه الغزاة للاسلام مناراً ، وأطفأ بها على يده الكريمة للكفر ناراً ، فعمّت جميعَ المسلمين المسرات ، وتواترت على أهل بلاد الاسلام البشارات ، ووردت من حضرته العلية إلى البلاد الغربية المخاطبات ، بشرح هاذه الغزاة الكريمة فقُرعت الطبول على العادة المعتادة فى الفرحات على ما سنّاه الله تعالا من الفتوحات ، وأخرجت الصدقات ، ونشرت رايات الكفرة منكسة فى أعلا منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينَها الحاضر والبادى ، والرائح والغادى ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر فى هاذه الغزاة الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة مع ابنه وأخيه وجماعته وأبلا فيها بلاء حسناً .

ووصل أمير المسلمين بجميع جيوشه المنصورة إلى الجزيرة الخضراء منصورَ اللوا ، مؤيداً على العدا ، وقدم بين يديه الغنائمَ والسبْيَ وأسرا الروم مصفدين فى الأغلال ، فدخلها فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول المذكور فى احتفال عظيم ، وبروز جليل ، وزعماء الروم وأقيالهم يقادون أمامه فى القطائن ، ورأس اللعين دون نونيودىلارا على عصا مرفوعاً بين يديه ليراه الناس .

فلما دخل قصره بعث بالرأس إلى ابن الأحمر بغرناطة ليرا فعل الله تعالا فى أعدائه ، فلما وصل الرأس الى ابن الأحمر صبَّره وجعله فى المسك والكافور وبعث به إلى ألفنش لعنه الله يستخدمه بذالك ويستألفه ويتحبَّب إليه، فقسم أمير المومنين بالجزيرة ما أفاء الله عليه من الغنائم على المجاهدين بالسوية والاعتدال ، للفارس سهمان وللراجل سهم واحد بعد أن نزع منها الخمس لبيت المال ، وكان ما غنم المسلمون فى هاذه الغزاة مئة ألف رأس

من البقر وسبعة وعشرين ألفاً ، وأما الغنم فلا تحصا حتى بيعت الشاةُ منها بالجزيرة بدرهم ، وكان عدد الأسرا من الرجال والنساء سبعة آلاف وثمانمئة وثلاثين نفساً ، وعدد البغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمئة راس ، وأما الدروع والسيوف والمغافر والتروس والبيضات فما لذالك عدد لكثرته ، فامتلأت أيدى المسلمين وصلُح حالهم وحال أهل الأندلس ، وأخذ حظه من ذالك القويُ والضعيف ، والمملوك والشريف .

وكتب أمير المسلمين الى بلاد العدوة بشرح هاذه الغزاة وبما أسناه الله تعالا من الفتح العظيم والنصر الجسيم كتاباً قرىء على منابر بلاده ، وكتب أيضاً الفقيه أبو القاسم العزفى إلى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح هاذه الغزاة بعد الافتتاح :

أما بعد حمد الله الذى بحمده يزيد المزيدَ من فضله ، وبعضده تنفتحُ رايةُ الفتح فلا تغلق بعد فتحه وحله ، وبحمده تغتنم (الغنائم) التى أحلت لنبينا **محمد** (ص) ولم تحل لنبي من قبله ، والصلاة على سيدنا **محمد** نبيّه المصطفا ، وصحبه الأعلام ، نجوم الاسلام ، المُقتدا بهم إلى مناهج الحق وسبله ، والمناجزين عدوَّ الله وعدوَّهم على كثرة عدده ، بحسن قبول الدعاء للمقام العظيم المرينى اليعقوبى بدوام السعد ووصله ، ومزيد الفتح المشفع بمثله ، ومضاعفة الخيرات على ما عُني به من جمع كلمة الاسلام بعد شتات شمله ، وعلى ما أهل به فى تمهيد البلاد ومصالح العباد بمقتضى الشرع الدينى الذى هو من أهله ، فكُتب كتب الله لكم من البشائر أفصحها وأصحَّها خبراً ، وأوضحها غُررا ، وعرفكم من عوارف منحه الجسيم ، وصنعه الوسيم ، ما لا يزال يتردد ويتجدد آصالا وبُكُرا ، من سبتة حرسها الله تعالا وآلاء الله تعالا ظاهرة القيام وافرة الأقسام ، مبتسمة بها الأيام أجملَ ابتسام ، والحمد لله على ما سناه من أياديه الجزيلة وأنعمه الجسام ، وأنتم معشر الأولياء الأصفياء فى الله تعالا معتدون بالمسرة والاجلال ، موفىً حق جلالكم الذى يقدمه مَن لهمْ صالحُ الأعمال مردد من شكر جلالتكم السنية وأعمالكم الدينية ما اتصل بصفة الحسن الذى لها والجلال ، مستوهبة أدعيتكم الصالحة وهي أهم ما

طمحت لاستهابته طوامح الآمال ، منحتم إدخال السرور على قلوبكم ، في كل ما يأتي على وفق مطلوبكم من مسرات الخيرات السابغة السربال ، وبحسب ذالك حفظكم الله تعالا وحفظ كمالكم مبادراً إلى إعلامكم بالتعريف من البشائر ، ومبالغ في التأكيد على الرسول به في سرعة الوصول إلى تلك المجالس والمحاضر ، والعلم بأن لمحضركم من الفضل والدين ما هو فيه غيركم ولكونكم تحضون على جهاد الأعادي بأقصا وسعكم وإمكانكم حد ما يقتضيه قوى إيمانكم ، وقد كان في هاذه الأيام الخالية من صنع الله العجيب ، ونصر دينه الذي هو الآن غريب ، من المسرات أوفر نصيب ، وذالك باعتناء ما خصه الله من العناية الربانية فليس هو بغريب ، فوفا المومنين حقه بأوفا حظ وقوا رجاءهم لئلا تنقطع البشرا عنهم بنصر الله وفتح قريب ، على يد مَن رجعت به كلمةُ الاسلام واحدة ، وغدت بيمنه وجوه السعد والاقبال مُسعدة ومُساعدة ، ونشطت بانجاده وعونه نفوس الرجال للقيام بمحاربة أعداء الله الذين صاروا بطول الدعة والنعم المتسعة من ربات الحجال بعد ما كانت متكاسلة عنها متقاعدة ، الملك الذي ليس له في عصره مضاه ، والخليفة الذي يقصر عن ملحق شأوه كل مفتخر مباه ، والامام الذي هو بسبب الحق آمر وناه ، الملك الأجل ، الأسنا الأسما الأنما الأفضل الأطول البجل المؤمل ، المنعم المجمل ، المحسن المفضل الذخر الملاذ المعظم ، الهمام الأمير المنصور ، المظفر المشكور ، المجد الأحفل الأعدل ، المجاهد الأكمل ، أمير المسلمين ، وناصر الدين ، القائم بالحق ، أبو يوسف ابن عبد الحق ، والا الله نصره الله واعلامه بطريق جميل واجلاله في سبقه الى أفضل الطاعات (بياض) وبماله من القبائل والجماعات وكريم مقدمه ، وذالك أنه لما اجتاز البحر إلى بر الأندلس نصره الله بجيشه الجرار ، وأبطاله الذين اتصفوا في حال الشدة بصفات الأولياء الأبرار ، وحازوا من البسالة ما يقصر أهل الاطالة في عظمه الذي هو أوضح من ضياء النهار ، ويقدم شيئاً على الأخذ فيما كان أمر من نظم شمل أهل الايمان ، واجتثاث محل التشاجر الواقع بينهم من أصلها والشنآن ، لتعمله بما ورد أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ولقوله تعالا : (وتعاونوا على البِرّ والتقوا ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ، ولما حظِي بتمام الأمل في ذالك والاختيار، بادر إلى جهاد أعداء الله

الكفار ، وحاز إنجاز وعد الله بالحماية له والاظهار ، ابتغاء الجنة التى اشترا الله بها من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فيا لها من صفقة رابحة ، فنهض إلى قرطبة أعادها الله للاسلام بعسكره المنصور ومخائل النجح ودلائل الفتح ذات وضوح عليه وظهور ، فوقعوا فى جيش الكفرة الذى كان لهم يدا علم الغرور ، لاحتفال الطاغية قصمه الله فى حشده وتحمل لهم أنه فاعل الافاعيل التى لا خفض لرفعه ، وكان ألفنش لعنه الله قد قدم بين يديه دون نونيو كبير النصرانية وزعيمها ببلادهم الذى اعتقدوا ألا ناصر مثله لدينهم الخبيث وعاضدا لظهوره بزعمهم الكاذب فى الوقائع العظيمة وفعله فيها ما نقلوا أنه لم ينقل مثله فى تواريخهم القديسة ، فلما التقا الجمعان ، وشرعا فى الضرب والطعان ، عمل المسلمون بمقتضا قوله عليه السلام : غبار فى سبيل الله ودخان جهنم لا يجتمعان ، فاقتحموا فى جموعهم ، معملين فى قتلهم سيوفهم ، فتفرق جمعُ الكفرة تفرق أيدى سبا ، ونكست أعلامهم وقتل حماتهم وولت فرسانهم منهزمين فارين هاربين ، فطفقت خيل المسلمين ، من ورائهم لاسقين لزمامهم وعاد النهار ليلا من شدة القتام ، وطلعت لعدو الله دون نونيو نجومُ نحسبه ، فكب منكوساً على رأسه ، وأدركه الحين لحينه ، وقطع رأسه على رغم أهل دينه ، ورأا ولده عليه من العار ، أن يتخلف عن أبيه ساعة فى دخول النار ، فاتبع به سريعاً ، واستحرً القتال فاستمر على من بقي منهم فقطع تقطيعاً ، وجملة ما أحصي من قتلاهم بلا خلاف، ما ينيف على ثمانية عشر ألف ، وبعدما انتشر ، بهاذا القتل الخبر ، وكثر العجب من كثرة ما حل بأعداء الله ابتهجت النفوس به وسرت ، ومرت البشائر به واستمرت ، وتواترت الأخبار من بلاد الكفار دمرهم الله وأبادهم ودمر أموالهم ، بأن المفقود منهم أربعة عشرة ألفاً وزيادة ، فتجددت بذالك البشرا ووردت على المسلمين مسرة عظيمة عقب أخرى ، وكل ذالك من نعم الله تعالا التى لا تحصا ولا يقدر لها قدرا ، ولا يوفى لها شكرا ، والله تعالا يسمع المسلمين من الأبناء المترادفة ما تبتهج به نفوسهم وترضا ، ويعرفهم من ورود المسرات ما يتبع بعضه بعضاً ، وعندما أومت الظبا للركوع ، وقعت رؤوس العدا ساجدة أسرع وقوع ، وضاقت بها سعة الأرض حتى أشبهت الرهبان من دخول

بعضها فى بعض فارتفعت على أعلا الصوامع كالجبل الشاهق ، فصعد المؤذنون عليها للأذان ، فكان أشها مسموع بالآذان والمسامع الموائق ، فياله من محل جامع للشرف الأعلا وأي محل أعلا شرفاً من هاذا الجامع الرائق ، استمر صيت الاسلام به فأصبح فضيلته مشهوراً وأرا عباد الله ما كانوا يرغبونه من الله فى إنجاز وعده ، بنصر الاسلام وعضده أعواماً عديدة وشهوراً ، وقد أفاء الله تعالا فى هاذه الغزاة من الغنائم العظيمة والخيرات الجليلة الجسيمة ، ما لا يبلغه الوصف ولا يدركه ، ولا يشق الأوهام سبيل تخيله ولا تسلكه ، من خيل مسومات عراب ، وأسلحه لا قيمة لهـا وآلاف من الغنم والبقر والبغال والحمير والثياب ، كل ذالك من الذخائر التى يجب لمن تخلد (بياض) وهاذا الجمع المقتول ، كان شؤنة الكفر التى بها يصول ، وعدتها التى أعدها لكل أمر مهول . ظنه أنه جمع السلامة فاذا هو التكسير ، واتخذه ولياً ناصراً والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ، فلم تبق والحمد لله نفوس باقية للكفار إلا وتحكمت فيهم سمر العوالى وبيض الشفار ، فاقتضت سيوف المسلمين عذار أبكار نفوسهم بعد أن بذلت لها فنون الرعب مهورا ، واغتسلت بماء الدمـاء منهم فكان لـه طهورا ، وحان وقت صلاة العصر فاغتنمت فضيلة أدائها فى أول الوقت فقامت لله تعالا فى محارب الحروب بأداء فرض صلاة العصر ، فوهب لها من عصابـة الجزبل ما جل عن استقصائه الحصر ، وما كان عطاء ربك محظورا ، وفى يوم السبت منتصف ربيع الأول المبارك أتيح هاذا الفتح الذىسناه الله تعالا فضلا منه على فئة الاسلام وأعظم بها فئة وذالك من عام أربعة وسبعين وستمئة ، نور الله بصيرة جيشها المنصور فى يوم سبتها المذكور ، وجمعها فى غدوها ، اعتماداً فيه على قوله عليه السلام : بورك فى أمتى فى سبتها وجموعها ، وهاذا الشهر المبارك الذى خصه الله من البركات السنية والحالات الربانية ، خـالة رتبة التشريف والظهور ، على سائر الشهور ، وهو مولو نبينا محمد صلا الله عليه وسلم (بياض) الوســط منه لما ورد من التفضيل مـن الخير لأوســط الأمور ، ومقاصر بنيت على التوفيق مبانيها فتكفل الله بتسيرها وخصائـص أسبابعن ما لأهلها من رتبة الجلال والتعظيم (لا يختص برحمته مَن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) ، ومـن عجائب نصـع الله تعالا الذى أيَّد أهـل دينه

ونصر ، وأعدا إليهم المسرة والبشر ، أنه لم يستشهد في هاذه الغـزاة من المسلمين ، حاشا نيفاً وعشرين رجلا كتبوا في زمرة الشهـداء السعـداء الموفقين ، وسارعـوا إلى مغفـرة مـن ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وذالك من أعظم الآيات البينات لمن تأمل واعتبر ، والحمد لله الذي صدقنا وعـده في نشر دينه وهنيئاً للمقام العلي وصـل الله سعده بهاذا الصنـع الذي جرا عـلى يديـه ، وذخـره منفعة شريفة إليه ،ليحظا بعز الدنيا وسعادة الآخرة عنده ، وعساكره المرينية الميمونة التي حظيت أيضاً من الأجر والخيـر بالحـظ الأوفـا ، وخصها الله تعالا من النجدة والشدة وتصميـم العزم بما صار الواحد منهم يناجز ألفا ، ان لاحت لهم فريسة انقضوا لانتهاز فرصتها انقضاض العقبان ، فهم في الشجاعة آية في هاذا الزمان ، بارك الله فيهم وشكـر جميع مباديهم ، أنجدهم الله (بياض) ولا زالت عنايـة سجيته تحرسهم ، فعرفكم محبكم بهاذه البشرا لتأخذوا من الابتهاج بها بأوفا نصيب وأتمه ، وتشكروا الله تعالا على نعمه بأبلغ الشكـر وأعمه ، ولتقرءوه عـلى من تعلمون له نية صالحة في الجهاد ، فيعلم أن هاذا أوانه ويباشر ويبادر بأقصا الجد والاجتهاد ، وليغتنم فضله الذي يجد بركته في الدنيا ويـوم المعاد ، وليتجر مـع الله بأفضل التجارة التي تعود عليه بأفضل مكتسب ومستفاد ، وقد قال تعالا : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) الآية ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب الأمير أبو عبد الله بن الأحمر إلى أمير المسلمين يعقوب جواباً عن خطابه الكريم الذي قد بعثه له بشرح هاذه الغزاة الدونونية ، التي أوهنت قوى النصرانية ، وكتب له في آخره دعاء جليلا .

قال صاحب التاريخ :

وأقام أبو يوسف يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد إيابه من غزاة دون نونيودى لارا بقية شهـر ربيع الثاني ، وورد عليه بها في هاذه الأيام كتاب عامله على حضرته مراكش وأعمالها يهنئه ويخبره بأنه فتح له مدينة تينمل

قاعدة جبل درن وأس ملك الموحدين كان فتحها فى آخر ربيع الثانى من سنة أربع وسبعين المذكورة فتكامل فرحُ أمير المسلمين بذالك .

وفى شهر ربيع المذكور ورد على أمير المسلمين كتاب صاحب إفريقية ، وكتاب ابن الأحمر ، وكتاب ابن أشقيلولة (الذى معه) هاذه القصيدة الفريدة (24) .

هبت بنصركم الرياح الأربع — وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائكُ سبقا — حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا — أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمان بالفتح الذى — ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لِمَ لا وأنت بذلتَ فى مرضاته — نفساً تفديها الخلائقُ أجمع
وأتيت تنصر دينَه مُتوكلا — بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
وكتائب منصورة يحدو بها — أمرٌ إذا أمضيته لا يرجع
لله جيشك والصوارم تُنتضا — والخيل تردا والأسنّة تُشرَع
من كل مَن تقوى الاله سلاحه — ما ان له إلا التوكل مفزع
لا يسلمون إلى النوائب جارهم — يوماً إذا أضحا الجوارُ يُضيَّع
كم من قصيٍّ الدار عاص قاده — حَتْفٌ يخبُ به إليك ويوضع
لما يفت يوماً فاملاء له — كيْما يحم له الحمام الأشنع
إن ظن أن فراره منْج له — فبجهله قد ظن ما لا ينفع
أين المفر ولا فرار لهارب — والأرضُ تنشر فى يديك وتجمع
أخليفةَ الله العظيم هُنِئْتَهُ — فتح يمد بما سواه ويُشفَع
ولْيهنِ ذاك الفتح أنك فتحه — وبحسبه منك النعيم المقنع
فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً — ولبست أنت منه ما لا يُخلَع
إن الذى سماك خيرَ خليفة — جعل الخلافة فيكم لا تنزع
هيهات سر الله أودع فيكم — والله يُعطى مَنْ يشاء ويمنع

---

24) هاذه القصيدة من شعر الأمير سليمان بن عبد الله بن عبد المومن بن على مدح بها ابن عمه أمير المومنين يعقوب المنصور ، ولعل ابن أشقيلولة انما تمثل بها فقط .

لكم الهدا لا يدعيه سواكم | ومن ادعاه يقول ما لا يسمع
إن قيل من خير الملوك بأسرها | فاليك يا يعقوب يومى الأصبع
إن كنت تتلو السابقين فانما | أنت المقدمُ والخلائق تُبَّعُ
فلأنتمُ ذخر الخلافة والذى | وجه الزمان بملكه يتطلع
خذها أمير المومنين مدائحا | من قلب صدق لم يشنْه تصنع
فالمدح منى فى علاك طبيعة | والمدح من غيرى إليك تطبع
جرر ملاءة عزة موصولة | فعساه يحسدها السماك الأرفع
واسلم أمير المومنين لأمة | أنت الملاذ لها وأنت المفزع
وحماك من يحمى بسيفك دينه | وكفاك ما يُخْشا وما يُتوقع
وعليك يا أسنا الملوك تحية | يفنا الزمانُ وعرفُها يتضوع

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب
الغزاة الثانية

قال المؤرخ لأيامهم :

لما قدم أمير المسلمين من غزاة دون نونيو إلى (الجزيرة) الخضراء أقام بها خمسة وثلاثين يوماً حتى قسم الغنائم بين المجاهدين واستراح الناس ، ثم خرج إلى الغزاة الثانية أول يوم من جمادا الأولا من سنة أربع وسبعين وستمئة ، فسار فى جيوشه وكتائبه المنصورة المظفرة حتى وصلوا إشبيلية وأحوازها ، فنزل بظاهرها بموضع يعرف بالماء المفروش ، فجالت جيوشُه المنصورة فى أحوازها وأنحائها وقراها وأمير المسلمين واقف أمام بابها تضرب طبوله ، وتشرق بالنصر راياته وبنوده ، والروم دمرهم الله قد انحصرت جموعُهم بداخل إشبيلية وركبوا الأسوار ، واعتمدوا فيها على الحصار ، وأيْقنوا لِما عاينوا من جد أهل الاسلام فى قتالهم بالهلاك والتبار ، ينظرون إلى المجاهدين يعبثون فى بلادهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، ويقطعون ثمارهم ويحرقون زروعهم ويخربون أرضهم وديارهم .

فلما غنم المسلمون ما بخارج إشبيلية من الأموال وهتكوا جميع أحوازها وحرقوا قراها وبروجها ارتحل أمير المسلمين عنها إلى شريش ففعل بها كفعله باشبيلية ، وأقام محاصراً ومضيقاً عليها بالقتال ثلاثة أيام ، فلما كان فى اليوم الرابع قدم عليه رهبان النصارا يرغبون منه أن يكف عنهم القتال حتى يبعثوا إلى ملكهم ، فكف عنهم أمير المسلمين وارتحل عنهم لأجل ذالك ولأجل المجاهدين كانوا قد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي ، فارتحل إلى الجزيرة الخضراء وصرف رهبان الروم دون مطلبهم ، فوصل الجزيرة الخضراء فى اليوم السابع والعشرين من جمادا الأولا المذكورة ، فقسم ما أفاء الله تعالا فى الغزاة من الغنائم بين المجاهدين ، فبيعت الرومية من هاذا السبي بمثقال ونصف ذهباً لكثرتهن ، ودخل فصل الشتاء فبقي أمير المسلمين بطول زمان الشتاء كله ساكناً بمحلته المنصورة على وادى النساء أمام الجزيرة الخضراء مرابطاً محترساً جيوش المسلمين يبعث الجيوش والسرايا فتغير على بلاد الروم فى كل يوم فيعودون إليه بالغنائم والطرف حتى أضعف بلاد الروم وأباد أكثرها واجتنب الروم الحراثة فى تلك السنة فغلت الأسعار وانقطعت طرقاتهم .

فلما علم أمير المسلمين ذالك منهم جاز إلى العدوة فنزل بقصر المجاز ، وترك بالجزيرة جيشاً من ثلاثة آلاف فارس من بنى مرين والعرب وأمرهم بالاغارة على بلاد الروم فى كل وقت وحين ، وكان جوازه من الأندلس إلى العدوة فى آخر يوم من رجب من سنة أربع وسبعين المذكورة ، وكانت مدة إقامته بالأندلس خمسة أشهر .

الخبر عن رجوع أمير المسلمين يعقوب من غزوه إلى فاس المحروسة

قال صاحب التاريخ :

لما قضا أمير المسلمين أربه من الغزو ودوخ بلاد الروم وتملكها وقتل حماتها وضعّفها وتشوقت قبائل مريـن إلى بلادهـا بطول مغيبهم عنها جاز إلى العدوة فى آخر يوم من رجب من سنة أربع وسبعين المذكورة ، فنزل بقصر المجاز ثم سار منه إلى طنجة ثم إلى حضرة فاس .

ولما نزل بقصر المجاز أتاه أولاد أبى القاسم العزفى بعثهم والدهـم للسلام عليه والتهنئة له بالسلامة والظفر والأياب ، فوصلوا إلى حضرته فـى جماعة من فقهـاء سبتة وصلحائها ، فوصلهم على طبقاتهم وأكرم وفادتهم ، وارتحل إلى مدينة فاس فدخلها فى الثامن عشر مـن شعبان مـن سنـة أربـع وسبعين المذكورة .

وعند وصوله إلى مدينة فاس خالف عليه طلحة بن محلى البطوئى بجبل أزرو من بلاد فازاز وتمنع به ، فخرج إليه أمير المسلمين مـن فـاس ، فنزل بعساكره عليه وحاصره به ثلاثة أيام ، فرأا طلحة ما لا قِبَلَ له به ولا طاقة له عليه، فأناب إلى الطاعة وطلب أمانه، فنزل إليه فعفا عنه وطلب منه أن يبيح له التوجه إلى المشرق وأداءَ فريضة الحج ، فأسعفه بطلبه وصرفـه لما أراد ، ووصله بمال جليل وخيل عتاق وإبل وما يحتاج إليه ، وذالك فى النصف مـن شهر رمضان المعظم من سنة أربع وسبعين المذكورة .

وفى أول رمضان المذكور تولاَّ الوزارة أبو سالم فتح الله السدارتى وخلع عليه ، فاستبدَّ بالوزارة وتنفيذ الأمور ، ثم رجع أمير المسلمين من جبل أزرو إلى مدينة فـاس فدخلها فى العشر الأواخر من رمضان المذكور ، فعيَّد بها عيد الفطـر .

وفى ثانى شوال من هاذه السنة قتل اليهود بفاس ، قامت عليهم العامة بسبب جارية مسلمة ادعت أن أحد اليهود اقتضها قهراً فى داره فقتل منهم أربعة عشر رجلا ولولا ما اتصل الخبر بأمير المسلمين وركب بنفسه فى جماعة من حشمه وأمر بطرد العامة عن مواضع اليهود وكفّهم عنهم لم يبق منهم أحد ثم أمر منادياً فنادا بالمدينة ألا يتعرضَ أحد ليهود الذمة .

وفى اليوم الثالث من شوال المذكور ، شرع أمير المسلمين فى تأسيس المدينة البيضاء وحضرته الغراء وبنائها على وادى فاس المحروسة .

الخبر عن بناء المدينة البيضاء دار المملكة ومقر العز والبركة البلدة السعيدة أيدها الله وحرسها

قال صاحب التاريخ :

لما عزم أمير المسلمين يعقوب على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وخاصته وحشمه ركب يوم الأحد الثالث لشوال المذكور، وأخرج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع فتخيروا موضعها على وادى فاس (بياض) وشرع فى حفر أساسها وأخذ طالع ذالك الفقيه المعدل سليمان الغياش (25) ومحمد بن الحباك وكان تأسيسها فى طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية ، دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجبا إليها من الأموال ، فكانت والحمد لله مدينة مباركة ، فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده ، يجيىء إليها جميع خراج المغرب ، ومن بركتها وسعادتها ويمن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة ، وأنها لم يخرج منها جيش إلا ظفر ،

25) الذى فى تاريخ ابن خلدون والقرطاس لابن أبى زرع أنه أبو الحسن ابن القطان .

ولم يعقد قط بها لواء إلا نصر ، ومصداق ذالك أن أمير المسلمين يعقوب الذى اختطها وشيدها وبنا أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توف رحمه الله غائباً عنها في المدينة التى بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس . ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين يوسف توفي بقصره فى بلدته الجديدة التى بناها بتلمسان وهو محاصر لها ، فاستوطنها ومدنها واتخذها حضرته إلى أن توفي بها على ما يأتى بيانه ، وكذالك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبد الله بن يوسف المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة ، وكذالك أخوه الوالى بعده سليمان فانه توفي أيضاً بقصبة رباط تازة .

ولما تم سور هاذه المدينة السعيدة فاس الجديد بالبناء أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد أبى عبد الله بن عبد الكريم الحدودى وأبى علي بن الأزرق والى مكناس ، والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة ، ولم يخدم فى بناء هاذ الجامع الكبير مع المعلمين إلا أسْرا الروم الذين قدم بهم من الأندلس ، ففى شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمئة تمّ الجامع المذكور وصلي فيه ، وفيها ابتدىء بعمل منبره الذى به الآن على يد المعلم الغرناطشى الرصاع ، وأول خطيب خطب به الفقيه المحدث محمد بن أبى زرع ، وفى أول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمئة تمَّ المنبرُ بالعمل وخطب عليه ، وفى يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمئة علقت الثريا الكبرا بالجامع المذكور ، وزنها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا ، وعدد كؤوسها مئة كأس وسبعة وثمانون كأساً ، وكان الصانع لها المعلم الحجازى ، والانفاق فيها من جزية اليهود لعنهم الله . وفى شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور ، وفيها بني فى المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنا بها حماماً عظيماً وأمر رحمه الله عماله ووزراءه ببناء الدور بها ، فبنا كل واحد منهم داراً ، وفى نصف شوال منه أمر ببناء قصبة مكناسة وقصرها وجامعها ، وبنا ذالك كلّه فى شهر شوال المذكور ، وولاّ الفقيهَ أبا أمية الدلائى قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم فبناها

بازاء عين قرقف من جهة قبْلة جامع القرويين ، وأجرا فيها ماء العين وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرا عليهم المرتبات من جزية اليهود لعنهم الله .

وفى هاذه السنـة أخـرج أبـو علي النواب مـن فـاس .

وفى شهر ذى قعدة منها بعث الأمير ابن الأحمر قصيدة من نظم الكاتب أبى عمر ابن المرابط إلى أمير المسلمين يعقوب يستنصره فيهـا ويطلب منه الجواز ثانياً لأنه لما جاز أمير المسلمين إلى العدوة بعد غزاة دون نونيو خاف ابن الأحمر من ألفونش وخشي أن يكون للنصارا عليه كرة ، فكتب إليه كتاباً بالقصيدة المذكـورة تركناها لطولها يستعطفه ويعترف لـه بالخطأ فى الأولا ويطلب منه الاقالة والعودة إلى الأندلس لاطفاء الفتنة وقمع الكَفَرة ، ومن هاذه القصيدة قـولـه :

هـل مـن معين فى الهدا أو منجد   مـن متهم فى الأرض أو مـن منجد

هاذا ما وجد من هاذا الكتاب

والحمد لله رب الأرباب